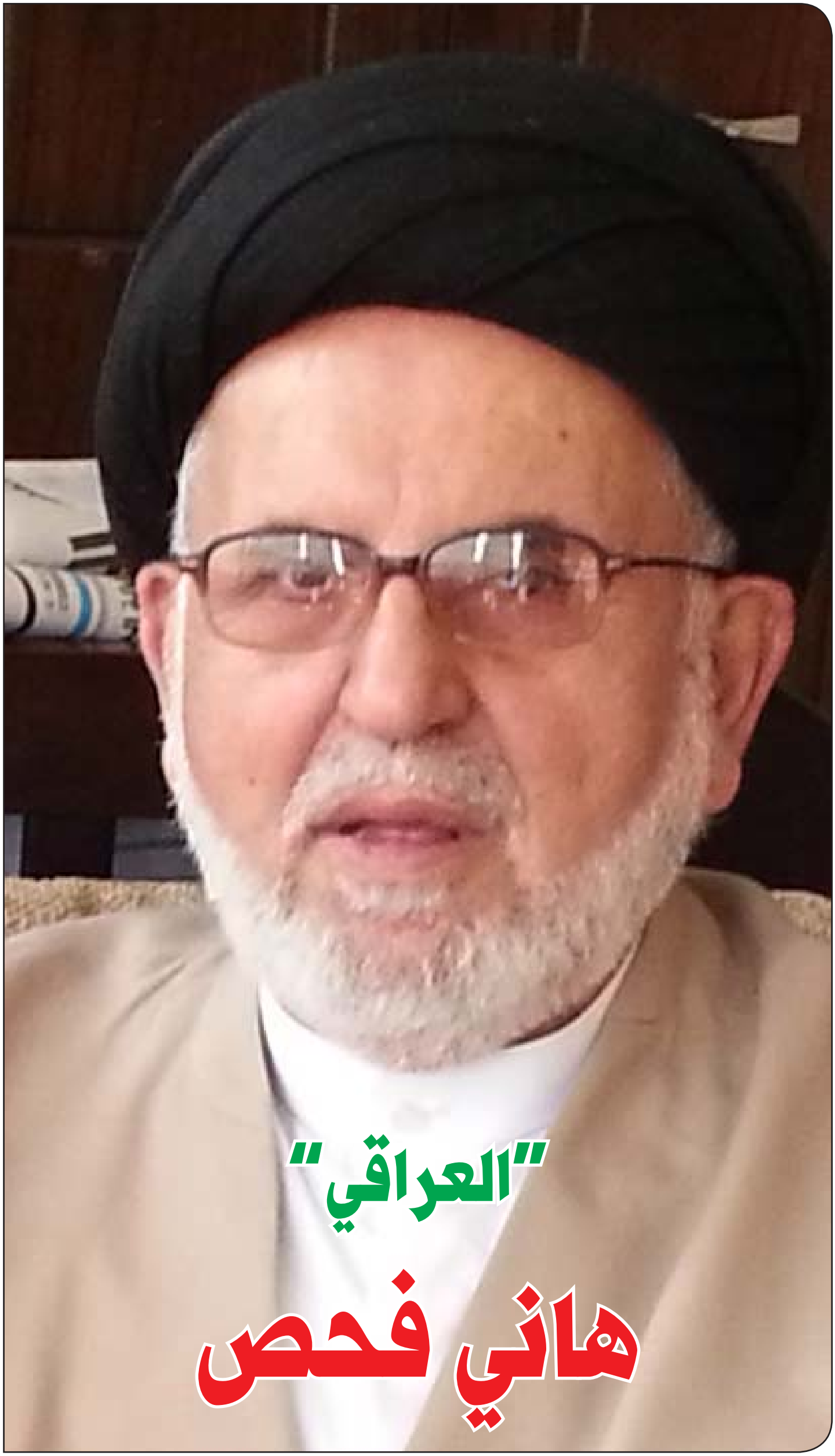

"العراقي"

هاني فحص

تراث

من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (3182) السنة الثانية عشرة

الخميس (25) ايلول 2014

WWW. almadasupplements.com

2

هاني فحص: الذاكرة هي شرط الحلم

أخبرني أنه ولد وعاش طفولته في قريته جبشيت التي صارت تسمى لاحقاً "قم جبل عامل" (كما أن حولا أو كفرتبنيت كانت تسمى عند اليسار موسكو الجنوب)... في جبشيت عمل أولاً مع والده السيد مصطفى، عامل البناء المتدين ، كما اشتغل ككل أولاد قريته في زراعة التبغ وذاق طعم التراب المجبول بعرق الفلاحين... أخبرني أنه اشتغل أيضاً في مهن أخرى كثيرة: كوى وحائكاً للعباءات، وخياطاً... وهو يقول عن تلك الأيام إنه "ذاق عذاب شتلة التبغ وصباحات الكادحين، قبل تذوقه عذاب المعرفة في أسئلتها الكبرى".

سعود المولى

هاني فحص: الذاكرة هي شرط الحلم

ظل ولداً عاملياً مشاغباً ومقاوماً حتى آخر لحظة من حياته...

وصف طفولته بالمشاغبة وأنه كان "يخلف" (يثير الخلاف) بين المسنين في ساحة القرية من خلال طرح أسئلته المقلقة، وأنه كان يشاغب أيضاً في المدرسة في نص الإنشاء كما في استظهار الشعر، فهو كان يحفظ سعيد عقل وأدونيس ومحمود درويش وبدر شاكر السياب... وفي كل يوم كان يكبر شغبه المعرفي، وهو الذي كان يبحث في تدينه الفطري (إيمان العجائز) عن معرفة، وفي حبه للغة عن أفق لهذا الحب.

عشقه للغة العربية كان الدافع الأول لرحلته النجفية (١٩٦٣- ١٩٧٢): "عشقت اللغة وعشقتني هي أيضاً.. فاللغة هي أيضاً بشر: لحم ودم وقلب وعقل"... وبرأيه أن مسألة التدين كانت تحصيل حاصل بالنسبة لأبناء جيله... فجيله يومذاك جيل متدين "يعني يمكن متدين قلق، يمكن متدين على غير معرفة تفصيلية، ووقتها المعرفة التفصيلية بالدين لم تكن مهمة، كما أن الدين هو غير المعرفة به، لذلك نحن كنا متدينين أكثر من الآن... الآن نعرف أكثر وتديّننا أقل، نصلي أكثر وثوابنا أقل".... وحين رآه أهل القرية يصلي في الشباب، وإن كان الأمر متقطعاً لاستغراقه بكتابة الإنشاء والشعر ، صاروا ينادونه الشيخ هاني، وكان أن استجاب هو لهم وترك لحيته وصار يتعامل كشيخ، ولكن "شيخ مشاكس، شيخ مشاغب... يسرق عنب.. ويسرق رمان... ويعمل مقالب... ما شي الحال".. وصار أهل القرية يقولون له يجب أن تذهب إلى النجف.. وكان في ذهنه أن النجف ليس فيها غير اللغة العربية .. وعندما أنهى المدرسة التكميلية ذهب الى النجف برضا من أهله ومن كل أهل الضيعة الذين فرحوا كثيراً له على ما أخبرني وعلى ما عاينته في تلك الأيام... وصل إلى النجف وهو يعتقد نفسه أنه داخل الى الجنة وأنه لا يوجد أمامه أي عائق.. ولكن بعد يومين أو ثلاثة اكتشف أن الطريق إلى الجنة هنا أصعب، فبدأ "يكبر عنده القلق على الذات وعلى الذهن وعلى العقل وعلى الدين"، وكثرت أسئلته الوجودية وهو القادم من قرية يحمل هموم وأحلام الفلاح بشوكه وترابه... ولم يدرك في البداية علاقات المدينة الجديدة هذه، فتحول إلى مشاغب... ولكن مشاغب محبوب من أساتذته وأقرانه... قال لي إنه كان ميالاً للاندماج بأسئلة الحداثة... وكان ذلك غريباً في النجف... ولكن الذي كان يحميه من إغارة الآخرين عليه هو أستاذه السيد محمد تقي الحكيم عميد كلية الفقه يومذاك، فهو الذي احتضنه ورباه وعلّمه الكثير ، ليس فقط العلم والمعرفة، بل الأهم أنه علّمه (كما قال) "أهمية السؤال"... في سنوات دراسته النجفية كان السيد محمد حسن الأمين رفيق السيد هاني الدائم، ومعهما السيد محمد مرتضى والشيخ محمد الخاقاني والسيد كاظم ابراهيم (وغيرهم ممن لا أذكر الآن)، وقد شاركوا جميعاً مع السيد محمد بحر العلوم في منتديات النقد الأدبي النجفية الرائعة التي ظلت ذكراها وذائقتها على لسان وفي وجدان السيد هاني. كما أن السيد أشرف على مجلة النجف لمدة عام وهي المجلة التي شكلت تجربة فريدة على مستوى الكتابات الفقهية والتاريخية والأدبية وشارك فيها كبار تلك المرحلة وعلى رأسهم الشيخ محمد مهدي شمس الدين والسيد محمد تقي الحكيم.

شجعه أستاذه وراعيه محمد تقي الحكيم على تنمية اهتماماته الأخرى في ميادين الأدب والتي بدأها بكتابة القصة القصيرة، إلى جانب الدراسة الحوزوية التقليدية التي برع فيها أيضاً. كانت النجف في تلك الأيام مسرحاً لحزب الدعوة الحديث النشأة على مثال الإخوان المسلمين وحزب التحرير (ومعظم قادته كانوا في الأصل ينتمون إلى هذين التنظيمين). وفي حين انهمك الكثيرون من أقرانه وزملائه اللبنانيين والعراقيين في قراءة سيد قطب وأبو الأعلى المودودي وتقي الدين النبهاني ومحمد باقر الصدر ينهلون منهم معنى للحزبية الإسلامية وللدعوة إلى دولة دينية، كان هو يطارد الفكر الحديث عبر المجلات والكتب القادمة من القاهرة وبيروت. ولكنه في الوقت نفسه لم يخرج عن إطار الدراسة الدينية المطلوبة والمرغوبة. ولعله من بين القلائل من أبناء جيله العرب الذين استفادوا علماً أصولياً وفقهياً وفلسفياً ولغوياً أكسبه احترام الجميع في النجف كما في إيران ولبنان.

حدثني السيد هاني مرة عن عدد أصدره من مجلة النجف وكان غلافه باللون الأسود (إثر نكبة الخامس من حزيران ١٩٦٧) واسم المجلة (النجف) مكتوباً بالأحمر الى يسار الغلاف... يومها شن عليه الرجعيون النجفيون (خصوصاً جماعة حزب الدعوة) حملة اتهمته بالوجودية العبثية الفوضوية (بسبب اللون الأسود) وباليسار الشيوعي (بسبب اللون الاحمر إلى أعلى اليسار من صفحة الغلاف).

كتب في النقد الأدبي وفي الثقافة والسياسة ولكن حلمه القديم الذي ظل يراوده هو كتابة الرواية... ولكنه كما قال لنا كان يدرك أن "كتابة الرواية تحتاج إلى حرية كبيرة" (يقصد الحرية في حياته الشخصية والعامة وهو المقيّد بواجبات ومهمات رعائية هائلة)، وقال لي يوماً "الرواية حياة وتحتاج إلى حياة"... ولكنه استعاض عن ذلك بنهم لا يرتوي لقراءة الروايات، الرواية الحديثة والرواية القديمة... أحب نجيب محفوظ كما أحب نابوكوف... وكانت ثقافته الإسلامية العميقة والواسعة يوازيها ثقافة أخرى من خلال إطلالاته المختلفة على كل الفكر الانساني، خصوصاً الفكر اليساري. كان من النادر أن تجد معمماً يقرأ ماركس ولينين وماو تسي تونغ وسارتر وميشال فوكو وبيار بورديو إلى جانب القرآن ونهج البلاغة والأجرومية. هذا الانفتاح الفكري المعرفي حولّه على المستوى الذهني إلى "أميبة أسئلة، السؤال يفرّخ السؤال، ويعمل لك حالة قلق لا تطمئن بدونها، طرقت كل الأسئلة ولم يبق هناك مطرح معرفي أو اجتماعي لم أعالجه بالسؤال أو عالجني بالسؤال".

حين عاد إلى جبشيت شيخاً معمماً وعالماً وأديباً، اختاره أهلها إماماً لمسجدها ، ولكنه لم يقبل أن يكون إمام مسجد بالمعنى التقليدي وحاول أن يجدد من داخل السياق... اعترف لنا بعد سنوات طويلة أنه أنجز أشياء حلوة ، ولكن ذلك كان كالفنان الذي ينجز لوحة أو يكتب ثلاثة أرباع الرواية، وبعد عشر سنين يكتب الربع الأخير... كان قلقه لا يكفيه المسجد ، ليس لأن المسجد ناقص، وإنما لأن السيد أدرك أن عليك أن تفتح له جداره ومحرابه على الحياة... فكان أن فتحه على الفكر والأدب... رجع السيد للوثته الأدبية اللغوية، ليشارك بتأسيس منتدى أدباء جبل عامل. وهو كان يسمي المنتدى "الأدب المصطبي" ، فكان الأدباء والشعراء يذهبون للجلوس في الهواء الطلق أمام الناس يناقشون السريالية مثلاً، وبالنصوص، ويتعاركون حولها أمام الناس. والنقاش والجلسة كانت مفتوحة لمن يحضر ويشرب الشاي ويشارك... وصارت الجلسات تضم مجموعة كبيرة من الشباب (أبرزهم على ما أذكر محمد علي شمس الدين وشوقي بزيع وحمزة عبود وجهاد الزين، وغيرهم طبعاً) . بعد فترة لاحظ والده الأمر فقال له أنت تجلس مع الناس وتخطب فيهم وهم "مش عم يفهموا عليك"، فشعر أن عليه النزول بلغة الأدباء والشباب إلى لغته القروية اليومية ولغة الناس. وأحس حينها بالخلل. وبلحظة ما قال لنفسه "يجب الذهاب إلى مطرح آخر"... وفعلاً ذهب إلى عند مزارعي التبغ... كانت أخته وأمه تعملان في الحقل من الساعة ١٢ ليلاً وحتى المغرب... فذهب يعمل مع المزارعين... وهو يقول عن ذلك: " تبغ! ما أنا عشت التبغ! ما أنا مكوّن من مرارات.. مكوّن من فرح مر، وحزن مر، ونوم مر، وسهر مر، وكتاب مر، وشاي مر، وسكر مر، وعرس مر، وموت مر... كله بسبب الدخان...".

في تلك المرحلة التقيت بالسيد هاني.... كنت مع مجموعة من الطلاب خارجين من منظمة العمل الشيوعي وتطوعنا يومها للقتال إلى جانب المقاومة الفلسطينية في مواجهة عدوان ١٦ أيلول ١٩٧٢... سمعنا في خريف ذلك العام عن سيد شيعي معمم قادم من النجف يبحث عن تجربة يسارية ثورية خارج الأطر والقوالب الحزبية الرسمية التي حاولت كسبه... في السنة الجامعية ١٩٧٢-١٩٧٣ أسسنا الجبهة الوطنية الطلابية لتكون الإطار التنظيمي والنضالي لعملنا في الجامعات ومدارس لبنان. وخلال السنوات ١٩٧٣-١٩٧٧ كان السيد هاني ضيفنا الدائم في محاضرات ومهرجانات شملت كل الكليات والجامعات... كان أول معمم شيعي يدخل قاعات المحاضرات في الجامعة اللبنانية والجامعة الأميركية وقبل الإمامين موسى الصدر ومحمد مهدي شمس الدين. وكان أيضاً أول رجل دين مسلم يشترك في نضالات العمال والفلاحين والطلاب والأساتذة... فمن إضراب أساتذة التعليم الرسمي في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٢ والذي استمر حتى تموز/يوليو ١٩٧٣ وتخللته قرارات رسمية بفصل ٣٢٤ أستاذاً.... إلى إضراب عمال معمل غندور في الشياح في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٢ والذي تخللته تظاهرة ١١ تشرين الثاني التي سقط فيها فاطمة الخواجا ويوسف العطار وجرح ١٤ عاملاً برصاص الجيش... كان السيد هاني في طليعة المعتصمين والمقاومين للظلم والعسف... وقد شارك في مظاهرة ١٣ تشرين الثاني التي قادها كمال جنبلاط تضامناً مع عمال غندور.... ولكن دور السيد هاني الطليعي في نصرة الكادحين سطع وتبلور مع انطلاق حركة مزارعي التبغ... في ٢٢ كانون الثاني/يناير ١٩٧٣ انطلقت تظاهرة مزارعي التبغ في النبطية واحتلت مباني إدارة حصر التبغ والتنباك (الريجي) وكان السيد هاني على رأسها...وفي مظاهرة اليوم التالي أطلق الجيش النار فسقط حسن حايك ووردة بطرس ونعيم درويش شهداء تلك اللحظة... وفي ٢٥ كانون الثاني كانت المظاهرة الكبرى في بيروت والتي كان للسيد هاني الدور الأكبر مع كمال جنبلاط في منع حصول صدام بينها وبين الجيش وذلك حين قاما بتحويل وجهة سيرها من ساحة البربير إلى ساحة الملعب البلدي... ومن يومها نشأت علاقة مميزة بين الرجلين: كمال جنبلاط وهاني فحص، وكان ثالثهما محسن ابراهيم....

في تلك السنة العاصفة بالتحركات النضالية (١٩٧٢-١٩٧٣) والتي حصل فيها أيضاً أول صدام واسع بين الجيش اللبناني والفدائيين الفلسطينيين (أيار/مايو ١٩٧٣) تمخّض عن تجربتنا الثورية الصغيرة مجموعة ماوية (نواة الشعب الثوري) حاولت لفترة تقليد منظمة اليسار البروليتاري الفرنسية ثم قررت الانضمام إلى حركة فتح بناء على أيديولوجية خط الجماهير والكتاب الأحمر. كانت فتح هي أيضاً خيار السيد هاني ولكن من منطلقات وطنية ودينية وعروبية ويسارية عامة التقت مع تطلعاتنا اليسارية الماوية. كنا نريد الذهاب الى حيث توجد الجماهير لنتعلم منها ونقودها على طريق الثورة. وكان السيد هاني يقول لنا تعالوا إذن إلى هنا إلى المسجد (حين كان إماماً لمسجد جبشيت ١٩٧٢- ١٩٧٥) وشتلة التبغ وعرق العمال وإلى معسكرات الفدائيين في الجنوب.

عن تلك المرحلة يقول السيد هاني إن الفلاحين هم الذين قادوه في معركتهم وليس هو الذي قادهم... مع أن "الأحزاب قالوا إنهم هم قادوهم، الأحزاب جاءوا بعدين وصادروا العملية... وأنا اكتشفت اليسار من الداخل، لم أعاديه ولكنني انتبهت ... يعني كنت أنا قادم من النجف مما نسميه الفوضى المنظمة، وكنت أبحث عن تنظيم مثل الأحزاب ، ولكنني وجدت قبائل مثل القبائل الأخرى يتخللها لمعات ، يتخللها أشخاص فيهم بلسانهم وبعقلهم نقطة ضوء..ولكن هي أحزاب تركيبتها تركيبة قبائل... والدليل نراه أمامنا اليوم أنها تشتت وتفتت وتصارعت وتقاتلت وذهبت إلى سياقات مختلفة... بعد ذلك صرت أبحث عن الشرط السياسي للمجال الاجتماعي ورأيت أن فلسطين هي شرطنا جميعاً... فذهبت إلى فتح... لأنني كنت أبحث عن مطرح يسمح لاعتدالي ولتديني أن يمارس دوره بدون قمع وبدون مصادرات... لأن هذا التدين والاعتدال ليس له مطرح باليسار بشكل عام، ولذلك فإن شلة المنتدى ذهبت إلى اليسار وأنا ذهبت إلى مكان آخر... هم ذهبوا عند حبيب صادق (المجلس الثقافي للبنان الجنوبي) وأنا ذهبت إلى حركة فتح ، وفعلاً كانت مساحة الحرية بحركة فتح واسعة...".

عاصر السيد هاني مرحلة صعود واتساع حركة الإمام موسى الصدر فأيدها دون أن ينخرط فيها، فهو القادم من النجف يحمل آفاقاً عروبية وكفاحية ثورية، ويسارية، وجد أن موقعه الحقيقي كان من خارج حركة المحرومين وبالتمايز عنها وليس بالضرورة ضدها، وإنما إلى يسارها: ناقداً محباً ومتضامناً يذلل أمامها الصعاب وينزع من طريقها الأشواك، وما كان أكثرها خصوصاً في صفوف اليسار اللبناني والثورة

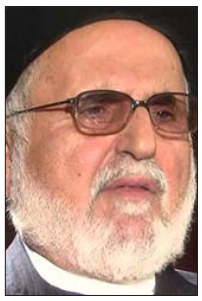

انت ثقافته الإسلامية العميقة والواسعة يوازيها ثقافة أخرى من خلال إطلالاته المختلفة على كل الفكر الانساني، خصوصاً الفكر اليساري. كان من النادر أن تجد معمماً يقرأ ماركس ولينين وماو تسي تونغ وسارتر وميشال فوكو وبيار بورديو إلى جانب القرآن ونهج البلاغة والأجرومية. هذا الانفتاح الفكري المعرفي حولّه على المستوى الذهني إلى "أميبة أسئلة، السؤال يفرّخ السؤال، ويعمل لك حالة قلق لا تطمئن بدونها

هاني فحص اثناء دراسته في الحوزة

الفلسطينية. فكان له الفضل في تلك الأيام في تحقيق الوصل والتعاون بين الإمام الصدر من جهة وأبو جهاد وأبو عمار وكمال جنبلاط من جهة أخرى.

في العام ١٩٧٤ رشحناه ورشحه كمال جنبلاط ومحسن ابراهيم للانتخابات الفرعية في النبطية (بعد وفاة نائبها الأسعدي فهمي شاهين) ، ولكن سرعان ما انسحب من المعركة بسبب اعتراض السيد موسى الصدر آنذاك الذي رشّح رفيق شاهين باسم المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى، وبسبب صراعات أهل اليسار وتهاونهم عن دعمه. حاول السيد الترشح مرتين بعد اتفاق الطائف (١٩٩٢ و١٩٩٦) ولكنه سرعان ما كان ينسحب تدليلاً على أن ترشحه إنما هو لهدف سياسي وطني ونضالي وليس لموقع أو لمكسب شخصي.

كانت علاقته بحركة فتح علاقة الثائر الأممي الإنساني بقضية الثوار أجمعين (فلسطين) وهو تعامل مع كل قادتها (خصوصاً أبو عمار وأبو جهاد) ومن اليمين واليسار، وكسب محبتهم واحترامهم جميعاً ولم يتخلّ -رغم قربه منهم- عن انتقاداته لدورهم وأدائهم في الحرب الأهلية اللبنانية.

ومن بين قيادات فتح تميزت صداقته مع جواد أبو الشعر ومحجوب عمر ومنير شفيق وحمدان (يحيى عاشور) وماجد أبوشرار وأبو صالح (نمر صالح) وأبو مازن (محمود عباس، الذي منحه قبل سنة جواز سفر فلسطيني له ولعائلته) وبالأخص الأخص مع كوادر ومقاتلي الكتيبة الطلابية حيث كان يزورهم أسبوعياً في مواقعهم وخنادقهم على تلال بنت جبيل والنبطية وقلعة الشقيف.

في العام ١٩٧٧ شارك معنا في تأسيس جريدة "الوحدة" (صوت المدافعين عن الوطن والمقاومة، أسبوعية سياسية) التي تحولت إلى أداة تعبئة وتنظيم واسعة الانتشار والتأثير. ومن يومياته في جريدة الوحدة (استمرت حتى ١٩٨٠) أصدر كتابه (يوميات الولد العاملي) وفيه كل حبه للجنوب وللثورة الفلسطينية وللعروبة...

وعندما تحولت الجريدة السياسية الأسبوعية إلى مجلة فكرية شهرية (١٩٨٠-١٩٨٢) واظب السيد هاني على الكتابة فيها إلى جانب محمد مهدي شمس الدين ورضوان السيد ووجيه كوثراني وحسن الضيقة ونظير جاهل وحازم صاغية ووليد نويهض وعبد الحسن الأمين ونجيب عيسى وميشال نوفل ومنير شفيق وروجيه عساف.

عندما بدأت الثورة الإيرانية خريف عام ١٩٧٧ عمل السيد هاني على إنشاء التواصل بين ياسر عرفات والإمام الخميني. زار السيد هاني الخميني مراراً في النجف ثم في منفاه الباريسي(نوفل لوشاتو)؛ ومن حصيلة تلك الزيارات أصدر الكتاب الأول المعروف عربياً للخميني وهو "دروس في الجهاد" والذي يتضمن كل خطبه ومداخلاته الثورية ما بين ١٩٦٣ و١٩٧٨. من زيارة نوفل لوشاتو كتب السيد هاني عن الوفد اللبناني الذي رافقه يومها وكانوا من الطلبة اليساريين والفتحاويين الدارسين في فرنسا وبينهم ٤ من المسيحيين.

ورافق السيد هاني ياسر عرفات على الطائرة التي زارت إيران بعد أيام من انتصار الثورة الإيرانية ضد الشاه في شباط ١٩٧٩، وله عن تلك الزيارة كتاب صغير (الخميني والقضية الفلسطينية) وفيه صور عن استقبال الإيرانيين لهم في تظاهرات مليونية.

الموقع الفلسطيني المميز جعله أكثر انفتاحاً (على حد قوله)... هو كان بالأصل منفتحاً منذ أيام النجف... وقد تعامل مع الثورة الايرانية مثلنا جميعاً تعامل الفرح بانتصار ثورة شعبية ديمقراطية سلمية على أعتى الامبراطوريات الاستبدادية... ورأى فيها فاتحة عصر جديد وبوابة أمل لفلسطين والعرب... فكتب لنا شعار المرحلة : اليوم إيران وغداً فلسطين، وكنا كتبنا في ٣٠ نيسان ١٩٧٥ اليوم فيتنام وغداً فلسطين...

بعض الذين ينتقدون اليوم تلك المواقف يتناسون أن كل ثوار العالم وكل اليساريين تعاطفوا وتضامنوا مع ثورة إيران، وأن ميشال فوكو كتب يمدحها ويمدح ما تمثله بالنسبة للشعوب المستضعفة ...وأن الذين أيدوا الثورة البلشفية أو الصينية أو الفيتنامية أو الكمبودية أو الكوبية، لم يؤيدوا مآلاتها ولم يحملوا وزر أخطائها وخطاياها ومصائرها الاستبدادية، بقدر ما أنهم حلموا بانتظاراتها الموعودة وحملوا شوق شعوبهم وجراح نضالاتهم وكفاح الفقراء المتعبين... والسيد هاني كان مثلنا جميعاً حالماً بوعود العاصفة وبأقواس قزح...

في خريف العام ١٩٨١ قمنا معاً برحلة بالباص من بيروت إلى طهران حيث قضينا أكثر من شهر زرنا خلاله كل مدن ومحافظات إيران والتقينا بكبار المسؤولين فيها (من الخميني ومنتظري الى رفسنجاني وخامنئي ومحتشمي وميرحسين موسوي وكروبي)... من تلك الرحلة خرج السيد هاني بقرارات حاسمة في حياته أتيح له تنفيذها بعد الاجتياح الاسرائيلي الكبير صيف ١٩٨٢. فقد شهد السيد هاني استشهاد عدد

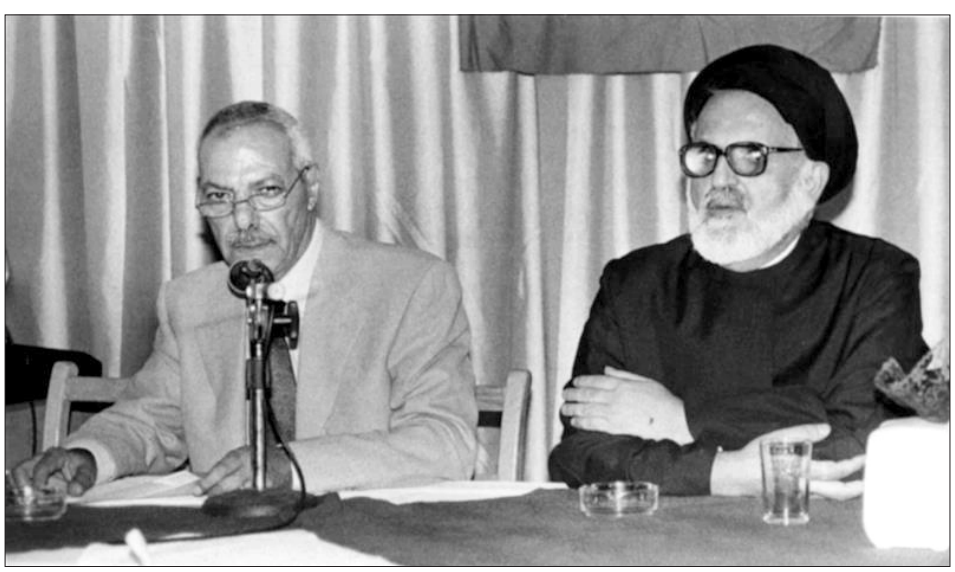

هاني فحص مع طلال سليمان

من أصدقائه وتلاميذه وأحبابه وهم يقاومون في قلعة الشقيف والنبطية وبنت جبيل وصيدا وصور وعين الحلوة والرشيدية وصولاً إلى بيروت ومجزرة صبرا وشاتيلا؛ وأحبهم إليه كان صديقه حسن بدر الدين وقد استشهد وهو يواجه دبابة إسرائيلية على مدخل جبشيت... قبل شهر من الغزو (أواخر نيسان ١٩٨٢) وكنا في تشييع صديقنا ورفيقنا سعد أرزوني في قريته شحور، دعاني السيد لمرافقته والبقاء عنده في جبشيت. مكثت أسبوعاً قمنا خلاله بسلسلة محاضرات في مسجد جبشيت برفقة الشيخ راغب حرب...

كان راغب حرب صديق السيد هاني الحميم والوفي ورفيق طفولته في القرية ودراسته في النجف؛ وكانت علاقتهما مضرب الأمثال في جبل عامل. درس راغب حرب في النجف ١٩٦٧-١٩٧٧، وعاد إلى لبنان ليعمل مع الشيخ شمس الدين والسيد هاني في منطقة النبطية، وليؤسس مبرة السيدة زينب للأيتام في جبشيت، ويتولى إدارتها حتى استشهاده في شباط ١٩٨٤. كان السيد هاني والشيخ راغب لا يتفارقان وقد واجها معاً كل الخيارات السياسية الحاسمة في حياتهما منذ جاء الشيخ راغب إلى الجنوب عائداً من النجف وحتى تأسيس المقاومة المدنية الشاملة بعد الغزو الصهيوني للجنوب عام ١٩٨٢ ثم استشهاد الشيخ راغب.

بعد الاحتلال سافر السيد هاني إلى إيران مع عائلته وأقام فيها ثلاث سنوات، عمل خلالها مستشاراً في مكتب إعلام الحوزة الدينية في قم، ومشرفاً على مجلة (الفجر) الفكرية الفصلية، كما أقام علاقات مع بعض المراجع فيها وبالأخص مع الشيخ حسين منتظري. أيام وجوده في إيران سافر في بعثات خارجية مع الإيرانيين إلى الغابون ومدغشقر وكينيا والكاميرون في نشاطات تهدف لتسليط الضوء على قضية القدس وفلسطين.

عاد من إيران عام ١٩٨٥ (بعد سنة على استشهاد راغب حرب)، وقد تخلّى (مثلنا جميعاً بعد تجربة مرة) عن الكثير من الأفكار والمسلمات والمطلقات... ولكن التحول الحاسم والأخير حصل في العام ١٩٨٨ يوم جرى تهميش وقمع الشيخ حسين منتظري وإعدام السيد مهدي هاشمي بعد حملة الاعدامات السيئة الذكر في سجون الجمهورية الإسلامية. أدرك السيد هاني يومها أن الثورة الإيرانية التي أعطاها من روحه وحياته ومن عقله وفكره قد سارت على طريق الثورات التي سبقتها في التحول إلى دولة مستبدة ولكن باسم الدين هذه المرة، وهذا أعقد وأسوأ أنواع الاستبداد. وقد كان في السابق يحاول مثلنا جميعاً أن يجد لها المبررات من قبيل أن قساوة الحرب التي فرضها صدام حسين على الإيرانيين جعلتهم يضحون بالديمقراطية، وأن الحروب من هذا النوع الطويل الأمد والمستنزف، تقتل الحريات وتفتح الباب أمام العسكر والميليشيات؛ وكانت في ذهنه تجربة الحرب الأهلية اللبنانية والتجربة الفلسطينية الأم. لم تكن تلك أولى الخيبات والمرارات ولا آخرها...

طبعاً تغيّر رأيه أولاً في موضوع فتح والثورة الفلسطينية وذلك منذ اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥)... فقد صار يدرك أنه "صحيح أن فلسطين شرط ولكن شروط تحقيق هذا الشرط اختلفت... وأهم الشروط الآن (برأيه) أن مصالح الشعوب العربية ودور العرب يتحققان إذا قدروا أن يؤمنوا شروط محترمة لتحقيق دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة بشكل من الأشكال، أي شكل مقبول وقابل للحياة وللتطور. وفي نفس الوقت فإن أحسن شيء يقدمه لبنان للعرب ولفلسطين هو الوحدة الوطنية اللبنانية والوفاق اللبناني والدولة اللبنانية والشعب اللبناني". وهذا كان شعار موسى الصدر الأساسي (سلام لبنان هو أفضل مقاومة ضد اسرائيل).

صار السيد هاني مثلنا جميعاً أكثر استعداداً لسماع الرأي الآخر المختلف، ولقراءة التجارب الثورية التاريخية قراءة جديدة تبحث فيها عن الحرية والعدالة والديمقراطية قبل كل شيء، وتضع الإنسان في المقام الأول: حياته وحريته وحقوقه. أعاد السيد وأعدنا معه قراءة النص الديني والنصوص الوضعية العلمانية، اليسارية والليبرالية... فكانت ورشة (كما كان يحب أن يسميها) لم تترك شيئاً لم تقاربه أو تنتقده أو تعيد قراءته...

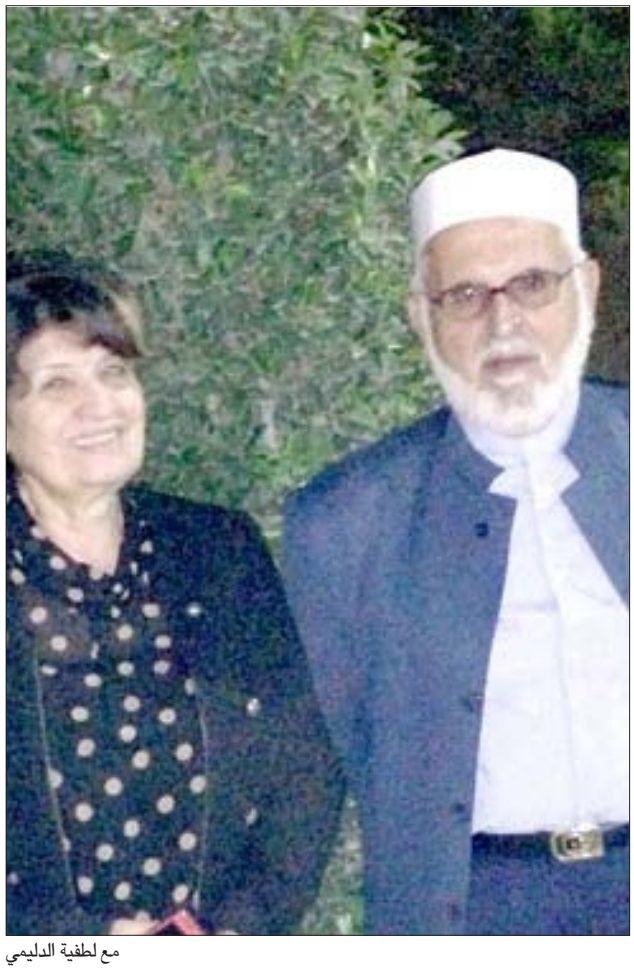

مع لطفية الدليمي

عند هذا المفصل من قراءته للتجربة اللبنانية-الفلسطينية وللتجربة الإيرانية وللفكر السياسي المعاصر، التقى السيد هاني (كما التقينا نحن) بالشيخ محمد مهدي شمس الدين (١٩٨٨)، الذي كان رئيساً فعلياً للمجلس الاسلامي الشيعي الأعلى منذ اختطاف السيد موسى الصدر في ليبيا آخر آب أغسطس ١٩٧٨... اكتشفنا معاً أن هناك أفقاً ديمقراطياً مدنياً لكل الثورات ولو أنها تضيعه وتفقد بوصلته.. فتوثقت صلة السيد برفاقه القدامى الإصلاحيين الإيرانيين من السيد محمد خاتمي والشيخ هاشمي رفسنجاني، إلى السيد مير حسين موسوي والشيخ مهدي كروبي والشيخ حسن روحاني... اكتشفنا معاً أن العروبة الحقة هي عروبة اللغة والثقافة والتاريخ والجغرافيا والمصالح المشتركة والسلامة والأمان والحرية والديمقراطية لا عروبة البعث والقومجيات الاستبدادية والشعارات الاقصائية الاستئصالية والسجون والمعتقلات والاعدامات والصراعات الدموية... واكتشفنا معاً أن هناك أسساً قائمة لدولة مدنية في لبنان، من الميثاق والدستور الأول إلى الميثاق الأخير في الطائف (الذي جمع بين الميثاقية والدستورية)... نعم اكتشفنا مع السيد هاني قيمة التعددية اللبنانية وأنها "شيء رائع"، وأن فيها "مشروع عقد اجتماعي بين الدولة والمجتمع"، وأن علينا نحن صياغة نوعية الدولة المدنية الناتجة عن هذا العقد... وهو قال إن هذا العقد الاجتماعي "هو مشروع قلق على المستويين اللبناني والعربي، ولكنه موجود، وهو كان موجوداً ومتقدماً في لبنان عن كل المنطقة العربية... وقد جاء الربيع العربي ليكشف حيوية وضرورة هذا المشروع وضرورة الإصلاح، على المستوى البنيوي في كل البلاد العربية"... ورأيه أن هذا العقد الاجتماعي ومشروع الدولة المدنية الديمقراطية كان أكثر حضوراً وقوة في لبنان وأن المطلوب هو حمايته ومنع تآكله وتراجعه ... "لأن التعدد اللبناني الذي اكتشفناه مبكراً بدأنا نكتشفه اليوم في كل الدول العربية، وأن وحدة العرق لا تمنع التعدد، ووحدة المذهب ووحدة الدين لا تمنع التعدد، والحداثة لا تمنع التعدد، والكلاسيكية لا تمنع التعدد، التعدد قانون كوني... هذا هو معنى ما أسماه البعض "الرسالة اللبنانية"، هذا هو المعنى الأهم... صحيح أن فيها بعداً وجدانياً شعرياً فنياً... إلى آخره، لكن هذا المعنى هو بعدها الأساسي، هذا هو الجسم الأساسي الخاص بشيء إسمه الإنسان اللبناني هذا هو النص ، المتن... والبقية حواشي... حواش جميلة موصولة بالمتن ، لكن هذا هوَ المتن".

وهذا كان مضمون موقف محمد مهدي شمس الدين "لقد اكتشف اللبنانيّون ذاتهم ووجودهم وتعلّموا أنه ليس لهم إلا لبنان، مهما حاروا وداروا، ومهما وجدوا من صيغ وصداقات وتحالفات، كلها تخيب وتخسر، ولا يبقى لهم إلا لبنان... وهذا اللبنان يخلق دائماً ويومياً بإرادة اللبنانيين أبنائه.. فهو ليس وطناً معطى، أو وطناً جاهزاً، إنه وطن يُخلق يومياً... هذا اللبنان، الوطن النهائي، ليس مكاناً جميلاً فحسب، إنه كرامة وحرّية، بيت ورغيف حلال، مدرسة ومستشفى، قدرة على المشاركة في الرأي والقرار، قدرة على التعبير والنقد... إن لبنان معنى ودور، وحوار حياة، أنتج صيغة فريدة للعيش المشترك ونمطاً مميزاً، علينا حفظهما وتطويرهما.".

إنطلاقاً من هذه المراجعات تفرّغ السيد هاني بعد العام ١٩٩٢ للحوار والكتابة والعمل الفكري والثقافي، فأسسنا أولاً الهيئة الإسلامية للحوار، بطلب من الشيخ شمس الدين، ومنها انطلقنا لتأسيس "المؤتمر الدائم للحوار اللبناني" (١٩٩٣) مع سمير فرنجيه ومحمد حسين شمس الدين وفارس سعيد ورشيد الجمالي وشوقي داغر وجان حرب وسمير عبد الملك، وجريدته الأولى "قضايا الأسبوع" (١٩٩٣-١٩٩٦) ثم مجلتيه: "قضايا لبنانية" و"أوراق الحوار" (١٩٩٦-١٩٩٨). كما أسسنا(١٩٩٥) مع محمد السماك وغبريال حبيب وطارق متري وجورج ناصيف ورياض جرجور وكميل منسى وحارث شهاب وعباس الحلبي وسليمان تقي الدين وخالد زيادة (لبنان) ومحمد سليم العوا وطارق البشري وسمير مرقص وأبو العلا ماضي(مصر) وحسن مكي والطيب زين العابدين (السودان) ورفيق خوري وجريس خوري ومتري الراهب وجميل حمامي (فلسطين)، الفريق العربي للحوار الإسلامي المسيحي، الذي تحوّل إلى أهم مركز للحوار العربي حول الدولة المدنية والمواطنة... ثم أسسنا "اللقاء اللبناني للحوار"(٢٠٠١) الذي ضم ٣٠ شخصية من كل الطوائف والمناطق والاتجاهات لبلورة صيغة فعالة تسمح بإدارة التنوع والخلافات سلمياً في لبنان ... وكان السيد يحرص دائماً على التواصل والتشاور الدائم مع سمير فرنجيه ونسيب لحود وانطوان مسره ونواف سلام

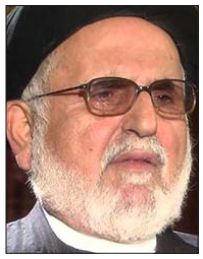

صار السيد هاني مثلنا جميعاً أكثر استعداداً لسماع الرأي الآخر المختلف، ولقراءة التجارب الثورية التاريخية قراءة جديدة تبحث فيها عن الحرية والعدالة والديمقراطية قبل كل شيء، وتضع الإنسان في المقام الأول: حياته وحريته وحقوقه. أعاد السيد وأعدنا معه قراءة النص الديني والنصوص الوضعية العلمانية، اليسارية والليبرالية... فكانت ورشة (كما كان يحب أن يسميها) لم تترك شيئاً لم تقاربه أو تنتقده أو تعيد قراءته...

وخالد زيادة وطارق متري وانطوان حداد والأب مكرم قزح وخالد لطفي وأحمد الزين ويعتبرهم ضمير لبنان المدني الديمقراطي.

بعد وفاة الشيخ شمس الدين (كانون الثاني ٢٠٠١) صار السيد هاني (مع عدد صغير من العلماء والمثقفين) هو المؤتمن على هذا الخط التاريخي للشيعة العرب واللبنانيين، خط "ولاية الأمة على نفسها" وبناء "دولة مدنية ديمقراطية عادلة" و"مواطنة سليمة متساوية للجميع وبين الجميع ومن أجل الجميع". وهو واجه تبعات هذا الخط وتحمّل نتائج مواقفه ومواقفنا، حملات ظالمة من التجني الحقير والفبركات المخابراتية والإعلامية التي طالته وطالت عائلته وكل أصدقائه، ولكنها لم تترك عنده أي أثر لحقد أو أن يتراجع عما يراه حقاً وصواباً، بل على العكس زادته صبراً ونشاطاً ومحبة وتفانياً حتى آخر لحظة. وقد عمل في تلك المرحلة الحساسة من تاريخ الشيعة العرب واللبنانيين على توفير صمام أمان لكل المثقفين الشيعة الباحثين عن الحرية والكرامة والديمقراطية والمواطنة وعلى رأسهم رفاقه الذين تعاونوا معه في تجمع لبنان المدني الشيخ عباس جوهري ومالك مروة وحارث سليمان ومحمد علي مقلد وعبد الله رزق وصلاح حركة وغالب ياغي.

وبعد، فقد كان السيد هاني فقيهاً شيعياً مجتهداً عن علم غزير ومعرفة عميقة... ولو أنه لم يطلب أي مقام ديني أو موقع فقهي أو مركز علمي، ولا طلب اعترافاً من أحد بعلمه وفضله وهو الذي كفاه قلمه عن كل طلب. لقد كان يعيش فقط من قلمه ... يكتب ويكتب... ولكنه أيضاً لم يترك منبراً أو وسيلة أو مطرحاً لنشر فكرة الحوار والسلم الأهلي والمصارحة والمحبة واللقاء على مشتركات وبناء تضامنات وصياغة عقد اجتماعي وبلورة قضايا العلاقة بين الدولة والمجتمع، وبين الوحدة والتعدد، إلا وطرقه ...

كان السيد مجدداً في كل شيء لا يخشى القول بالعلمانية من منطلق إسلامي ولا يخشى انتقاد الشيعية السياسية من منطلق وحدوي، كما انتقد من قبل المارونية السياسية والسنية السياسية والثورة الفلسطينية والقيادة الإيرانية الخ... ودائماً من منطلق الحرص على العروبة ولبنان وفلسطين والإسلام والتشيع.

كان حاضراً في كل ما هو إيجابي ومشرق... كان يستولد المبادرات حين كنا جميعنا نعجز عن مواكبة التطورات المتسارعة والمقلقة. فكان يسبقنا ويذهب إلى حيث توجد مبادرات شبابية جريئة: من مخيمات الحوار والتعاون التي كان الفريق العربي للحوار يقيمها في قبرص ومصر وسوريا والأردن ولبنان، إلى مخيمات انتظارات الشباب مع صديقه الرائع الأب مارون عطاالله، إلى العمل الكبير الذي كرّس له نفسه في جمعية فرح العطاء مع الدكتور ملحم خلف، إلى مظاهرات العلمانية والدولة المدنية مع شباب لبنان من كل الأطياف، إلى الحوارات الصاخبة في النجف وبغداد واربيل والسليمانية

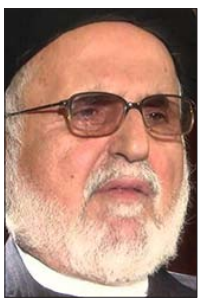

كان السيد مجدداً في كل شيء لا يخشى القول بالعلمانية من منطلق إسلامي ولا يخشى انتقاد الشيعية السياسية من منطلق وحدوي، كما انتقد من قبل المارونية السياسية والسنية السياسية والثورة الفلسطينية والقيادة الإيرانية الخ... ودائماً من منطلق الحرص على العروبة ولبنان وفلسطين والإسلام والتشيع.

بحثاً عن حلول سلمية ديمقراطية مدنية لعراقه الذي كان يصرخ فيه كلما تذكر بيتاً لبدر شاكر السياب أو لمظفر النواب... إلى حوارات القاهرة مع شبابها وشيوخها بحثاً عن "طريق عربية نحو المعاصرة والمواطنة" وعن أفق إسلامي للدولة المدنية وللديمقراطية... إلى محاولاته الإصلاحية الوحدوية والمدنية مع شيعة الخليج وخصوصاً أحبائه توفيق سيف وحسن الصفار ومحمد محفوظ وجعفر الشايب وزكي ميلاد ومحمد النمر وصادق الجبران... إلى زياراته المتكررة للعراق بحثاً عن استعادة دور المرجعية في بلورة الخيار المدني الديمقراطي للشيعة العرب وحواراته مع رفاقه محمد بحر العلوم وعادل عبد المهدي وفخري كريم ومصطفى كاظمي في هذا السياق.

ومن لاهوت الثورة (ورمزيه كاميليو توريز وعلي شريعتي) إلى لاهوت الحوار (ورمزيه هانس كونغ ومحمد مهدي شمس الدين)، امتشق السيد هاني قلمه وجعل قلبه دليله وعقله شراعه، فحيث كان القلب كان الحلم وكان الحب وكان الفرح وكانت الطفولة وكانت الذاكرة، وكانت الثورة وكان النضال وكان التغيير... وبعد ذلك وفوق ذلك فقد كان السيد هاني صديقاً حبيباً مخلصاً وفياً صادقاً صدوقاً...

وكان عالماً متفقهاً متبصراً منفتحاً أصيلاً حراً لا يخشى في الحق لومة لائم...

كان نسمة ناعمة داعبت خيالنا وأيقظت أحلامنا...

سيأتي زمان... القابض فيه على الذاكرة
كالقابض على النار
تحترق العينان
وجمرات القلب
رجع الآم
تحترق اليدان
وأوتار الروح
نبض لا ينام
سيأتي زمان
يتلوّن فيه الكون
وتنحني القامات
يموت الفكر في أتون الكلمات
تتلوى الفتنة بين أضلع المفردات
سيأتي زمان نكون فيه
بقايا ملصق لرفيق
مشروع بيان كتبناه ذات يوم
في غفلة من أهلنا والاحلام
آه ايها الصديق
تقتلنا الحكايات كلما تمايلت
الاحزان فوق الابتسامات
يقتلنا الحنين كلما حكينا
أحلى ما في السنين
آه ايها الصديق
يقتلنا الحب والورد
والوجد والوجدان
آه ايها الصديق
ماذا فعلنا لنكون نحن الزمان
يأتي او لا يأتي
ماذا فعلنا لنكون نحن المكان
قريب وبعيد
آه ايها الصديق
أسمع هتافا على الطريق
اين المنتظِر؟ اين المنتظَر؟
اين الشاهِد؟؟ اين الشهيد؟؟

فحص
تماسك رحيلك يخل بالمعادلة

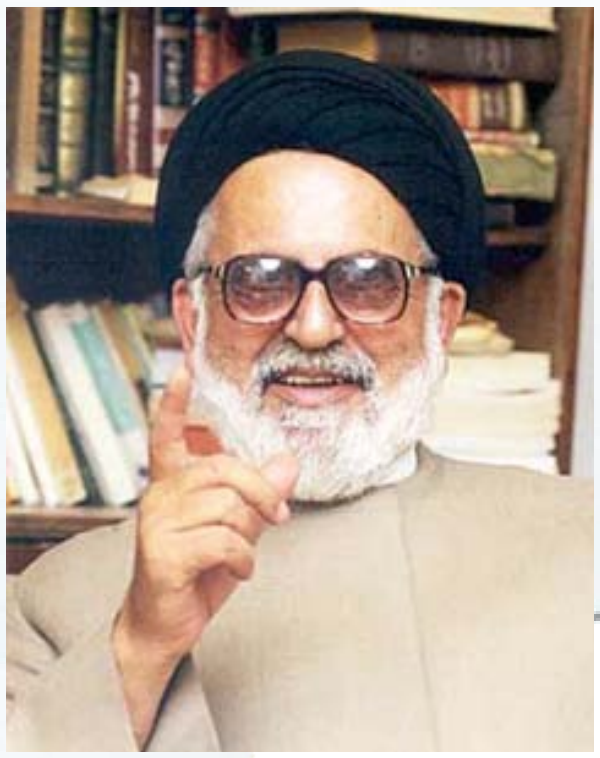

رشيد الخيّون

عندما سمعتُ بمرض العلامة اللبناني صاحب العمامة السوداء هاني فحص (١٩٤٦- ٢٠١٤) سجلت في دفتري الكتابة إليه تحت هذا العنوان «تماسك رحيلك يخل بالمعادلة»؛ لكن المرض لم يمهله ويمهلني لمناشدته، مع علمي عن طريق الأكاديمي اللبناني سعود المولى أنه في غيبوبة قد تطول. كنت أعني ما أقوله، فعمامة مثل عمامة فحص غدت أقل من القليل، وعلى وجه الخصوص أن حاملها صاحب باع في الكلام والكتابة، وصاحب حجة وطنية قبل بقية الفرعيات، مكورة فوق جبل من التجارب والمواقف، حتى أن الكثيرين ممن لا يعجبهم أداءه ضد إخضاع الدين للسياسة تمنوا أنه يخلع ما بينهم وبينه من صلة، فقلتُ له: «لا تخلعها فنخسرك محارباً بأدواتهم، تمسك بها كي لا ينفرد المتزمتون الطائفيون بتمثيل الله وأوليائه على الأرض».

لا تخلعها، فبها تراهم يهيمنون على البسطاء، لا يدعون ذرة علم وعقلانية تصل أدمغتهم، بوهم أن الأوطان عبارة عن دين ومذهب وممارسات، قال عنها النجفي محمد صالح بحر العلوم (ت ١٩٩٢) في «بعض العقائد» (١٩٣٤): «أنا لا أريد لأمتي حريةً/ في ما تدين لأنها رعناء»(الخاقاني، شعراء الغري). يومها كان بحر العلوم يعتمرها سوداء كعمامة فحص، لكنه تخلى وتخلت عنه، ومثله كان سليل المرجعية الدينية آل كاشف الغطاء الشيخ صالح الجعفري (ت ١٩٧٩)، ولأنه يحمل همَ هذه الجموع محاولاً انتشالها اضطر للتخلي عن عمامته البيضاء ولقبه أيضاً، كي لا يُحمل الأسرة نتائج مواجهاته الفكرية والأدبية ومواقفه في الإصلاح، من أجل رفع شأن مواطنيه، عندما قال (١٩٢٦): «وقَيد طالما قُيِّدت فيه/ وأهونْ بالرجالِ مُقيِّدينا/ نبذتُ به ورائي لا أبالي/ وإن غضَبَ الكرامُ الأقربونا/ حنانا- يا أماثلنا - حنانا/ حناناً.. أيها المتزمتونا/ تبعناكم على خطأ سنيناً/ وأسفرت الحقيقةُ، فاتبعونا» (الغبان، المعارك الأدبية حول تحرير المرأة، عن الديوان).

ظلت العمامة ثابتة على رأس هاني فحص، ولم يخل بموجباتها، في الوقت الذي خلعها مواطنه العلامة حسين مروة (اغتيل ١٩٨٧)، لأنه وجد في نفسه فراقاً بين العمامة وتصنيف كتاب «النزعات المادية في الفلسفة الإسلامية». كذلك لمعروف الرصافي (ت ١٩٤٥) قصة في خلع عمامته، ومثله محمد مهدي الجواهري (ت ١٩٩٧). هذا، وكم من لبناني من جبل عامل جاء إلى النجف للدراسة الدينية ليكون مشروع رجل دين فخلع عمامته كي لا تعيقه عن الدخول في عوالم الفكر والثقافة، أو لم يتمكن مما تمكن منه هاني فحص من الموازنة بقناعة لا رياء. وقد كشفت الحوادث بعد العقود عن مرائين من أهل العمائم وأهل اللِّحى والمسابحَ الأفندية، وهاني لم يكن من بين هؤلاء.

ظلت عمامته ثابتة، ولم تكن ثقافته الدينية رخوةً كي يتأثر ويسارع إلى خلعها، وفي الوقت نفسه لم تكن ثقافته المدنية رخوة أيضاً كي يساير من وصفهم الجعفري أعلاه بـ«المتزمتونا». يقول عن أول اعتمارها وهو ما زال دون السن الموجبة حتى قال المشايخ عنه «بكير على السجن» (فحص، ماضي لم يمض)، قال عن تلك المناسبة بما يشوقني لحديثه «المهضوم» على حد اللفظ اللبناني: «تعثرتُ بذيل جبتي، وسقطتُ على أرض الشارع على وجهي، وانحلت عمامتي، ولم استطع لفها، وعدتُ إلى المدرسة بشكل كاريكاتوري» (المصدر نفسه).

كان أول تعرفي على العلامة هاني فحص عبر مجلة «النور» الإسلامية التي تصدرها مؤسسة الإمام أبي القاسم الخوئي، في مقال فتح ذهني على حقيقة لم أكن أعرفها عن الإسلام السياسي، ولربما بحثها كتاب قبله، وفيها كشف عن عدم أصالة الأحزاب الإسلامية من ناحية التنظيم، ولأهمية ما كتب أتي بهذا الاقتباس: «لا أصل إسلامياً لنماذجنا الحزبية الإسلامية. أما النسبة العالية من التماثل بينها وبين الأحزاب الأخرى المغايرة، فتأتي من شيء من التعرف على تاريخ الأحزاب، التي كان لها دور كبير في التاريخ الحديث، وظروفها وشروطها (الحزب الشيوعي مثلا)، خصوصاً إذا لاحظنا أن كثيراً من قيادات وسطية وكوادر شيوعية عربية غادرت مواقعها لتنتظم في إطار الأحزاب الإسلامية، وتتحول إلى مصادر رؤية في العمل الإسلامي الحزبي. لكن التماثل في أساسه إنما يأتي في الدرجة الأولى من ضرورات تكوينية طبيعية في البناء الحزبي، لا دخل فيها للوعي أو الإيمان أو عدمه» (مقال: كل الأحزاب العربية لينينية، مجلة النور، العدد ٨٨).

ظل العلامة هاني فحص يلح على المواطنة، معتبراً الحزبية الدينية شقوقاً في الوطن والدين، فهي عابرة للأوطان والإنسان، لذا لم يأت موقفه من النظام السوري إلا كونه لبنانياً، وأن شراكة «حزب الله» اللبناني لهذا النظام قد صادر شيعة لبنان بل الشيعة بالمنطقة، وأصدر البيان تلو البيان في توضيح الموقف، وأين تكمن مصلحة الشيعي اللبناني، في الوطن أم في الحزب؟ كان سباقاً إلى التقارب الوطني، وتجده البارز في الحوار المسيحي الإسلامي، وربما أكثر البلدان يحتاج إلى هذا الحوار هو لبنان قبل غيره، فالشرخ هناك ظهر من مواجع الحرب الأهلية، يوم تحولت الطوائف اللبنانية إلى قبائل مسلحة، فأنست العالم بيروت الثقافة والتمدن، وصار اللبناني إما مقاتلاً داخل فوج طائفته وإما مغترباً.

يمتاز هاني فحص بأسلوب يندر أن تجده بين علماء الدين، مع أنه يعطيك تصوراً عن الشخصية الفقهية اللبنانية، أسلوب أدبي رصين، يلعب على اللغة كي يوصل الفكرة بسلام، وذلك عندما يرى القاعة مكتظة بالمتزمتين، والنتيجة أن فكرته تصلهم مع متعة الحديث. تراه يعترف باللجوء إلى هذا الأسلوب في كتابه «ماضي لا يمضي» (دار المدى).

لاشك أن الموت حق، وعندما نقول: رحل في وقت غير مناسب، لا نقصد سوى الأماني والحاجة لمثل هذا الرجل، والذي ما أن تقرأ له مقالاً أو تسمعه حتى تظن نسمة مرت عليك وتركت في روحك سلاماً. شاركته في ندوة الحوار الإسلامي المسيحي (فبراير ٢٠٠٨) ببيروت وكنتُ محاصراً على المنصة بين عمامته وقلنسوة أحد القساوسة اللبنانيين، فقال لي: «أين المفر»؟

على أية حال، ما تركه العلامة هاني فحص في نفسي وعقلي، وفي الآخرين من أمثالي، يؤكد أن الوطن للجميع، وقد حفر في النفوس ذلك على «مقدار ما تقول الشراكة من قيم وأفكار وعواطف ومتاعب ومواجع وأفراح وأحزان..». هذا آخر ما قرأته له.

ابتسامته المحيرة

عناية جابر:

لم يكن يصافحني لكن قلبه كان يهجم ويلامس حضوري في المكتب حيث يأتينا زائرا، متواضعا يدّعي أنه أتى لاستزادة في الشعر والمعرفة ويبتسم ابتسامته المُحيّرة التي تستفزني، الأمر الذي كان يروق له. كان يقرأ قصائدي ويستمع إلى صوتي في حفلات أقيمها هنا وهناك فأعجب العجب الذي نعجبه حيال ظواهر لا تنتمي إلى ما عرفناه وسمعناه. واثقة أنه كان يتشهى أن يعيش بعد ذلك، ثمة مشاريع كتاباته التي كان يُحدّثني عنها، لكنه رحل! عليّ أن أقبل خسارتي في أديب كبير ورجل ما انفك يسأل ويبحث، في المسلمات أيضا.

× **شاعرة من لبنان**

غياب عصيّ على التصديق

أحمد بيضون:

أقول صادقا أن غياب هاني فحص يبقى عَصيًا، في شعوري، على التصديق... فمن يوم أن عرفتُه، قبل عقود، يطغى على صورته، في خاطري، فيض الحيوية والحضور. وقد كانتَ حيويته وكان حضوره شهوة متّقدة لمعرفتك، إلى أيّ صنف من الناس انتميتَ، ومتّسَعا من النباهة والإقبال لا يضيق بك كائنا من كنتَ بل يستدرج منك النباهة والإقبال.

× **مؤرخ وباحث وكاتب لبناني**

خسارة للجميع

الهادي غيلوفي:

خسرت الأمة العربية الخميس ١٨ /٩ /٢٠١٤ علما من أعلامها وهو الشيخ هاني فحص العالم والشيخ والشاعر اللبناني وهو يمثل التيار المعتدل والخط العروبي لدى الشيعة اللبنانيين.

وقد دفع ثمن مواقفه هذه الكثير وآخرها موقفه من تدخل حزب الله في الأزمة السورية فقد كان شوكة أمام الطائفية ووقف في وجه التيار الذي يريد استثمار الشيعة العرب في الصراعات الإقليمية ودافع عن خط عروبي يقول إن الشيعة هم عرب وليس من حق أحد أن يجتثهم من بيئتهم ويجعلهم في خدمة إيران تحت مسمى ولاية الفقيه الإيرانية وكان موقفه الأخير يحذر من ردود الفعل من المقلب الآخر أي التطرف السني التكفيري وما ظهور داعش وغيرها من التعبيرات العنيفة إلا وجه من وجوه الشحن الطائفي ضد الشيعة المتأتي بالدرجة الأولى من التدخل الإيراني الذي أقحم حزب الله في حرب قذرة فبدل الوقوف على الحياد أو مناصرة الشعب السوري تدخل حزب الله لقمع السوريين تحت راية.. يا علي.. يا حسين.. مما ساهم في توسيع الشرخ.

هذا الموقف عبّر لي عنه في آخر لقاء جمعنا في مدينة مراكش ضمن مؤتمر حول "الخطاب الديني: إشكالياته وتحديات التجديد"، والذي قدم فيه ورقة مميزة نالت إعجاب جل الحاضرين حتى أن البعض تساءل هل هذا الخطاب يمكن أن يصدر عن شيخ شيعي. فالسيد هاني فحص إلى جانب أنه عالم دين فهو شاعر لديه العديد من الإسهامات ويعتبره البعض من المتحاملين عليه شيخا علمانيا ويصل البعض إلى نعته بأنه شيخ بعثي لحبه الكبير للعراق وللعروبة ولأنه لم يقف في الصف الإيراني خلال حربها مع العراق.

اليوم يودّع لبنان والأمة العربية شيخا مستنيرا حارب الطائفية وحاربه مستثمروها وحاصروه وكالوا له شتى التهم لكنه لم يتراجع وبقي صامدا، لقد شكلت وفاته خسارة للجميع وللتيار المدني في لبنان والعالم العربي.

× **باحث وأكاديمي من تونس**

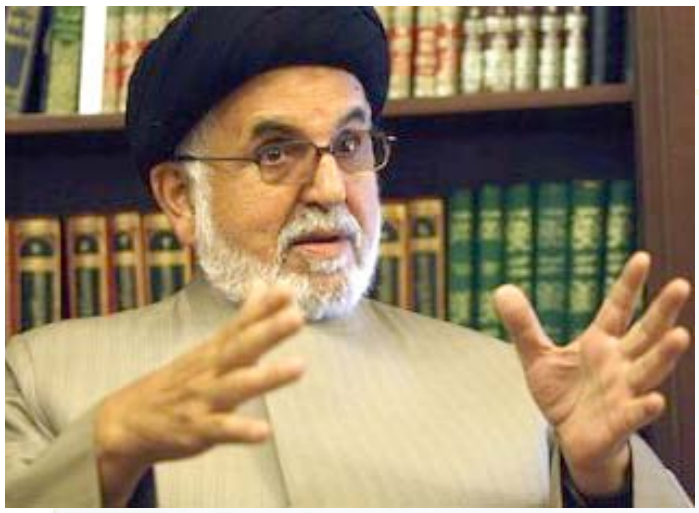

حب الله وحب الإنسان

نسرين بلوط:

حين تنهال النصوص رذاذا في قلب الورق. مترنمة بالحب الصوفي وبعرق الكادحين والفقراء وبابتهالات تصدح بها حنجرة طرية تخشى من عظمة الرحمن. وتعرج على الأرق الاجتماعي والفلسفي وتتأمل ريح المسافات. وتأبى التملق والتسلق على أكتاف الغير. فهي نصوص عملاقة ترقى إلى هامات الغيوم ونصاعة بياضها الثلجي.
هاني فحص كاتب عرّج على مفارق البين وتنهيدات الأرواح الحائرة وضمّ لمملكته حب الله ليمزجه مع حب الإنسان. آمن بأن للقدر الإلهي هباته ومواسمه فابتسم لكل فصول الحياة أحيانا بنظرة واهية من آلام الغير وأحيانا أخرى ببسمة متوارية وراء غلالة من الأمل.
سعى إلى الاعتدال كما سعى إلى أن ينضح فكره بكل ما يزكيه في إيمانه حبا وشعرا وتقربا إلى الله. لم يكن رجلا كغيره من الرجال. وربما سعى هو نفسه إلى ذلك من دون أن يدري بعد أن جعل فلسفته وكتابته وأفكاره وأحلامه تدور حول هالة من الإيمان الشجي الذي يسطع من الروح وليس من تكديس أوراق التحريم والتحليل.
لقد سبر غور الكون بتلك الابتسامة التي لم تفارق محياه وهو يتبادل في مـأدب الرحمة كؤوس المحبة ويقحم الظلمة في النفوس الضعيفة ليشعل فيها بعضا من بريق روحه. هناك حكاية عشق طويل تظلل دربه مع الجنوب. الجنوب الذي منحه صموده المزيد من الإيمان وثباته المزيد من الصبر وعنفوانه المزيد من الشغف. تلك الحكاية الجنوبية حكايته التي تمرغ قلبه فيها حتى وافته المنية وهو يزداد تيها في عشقه ويزداد عطشا لرحيقه. رحم الله السيد هاني فحص الذي عاش في النور ومات في ظل الحق حتى يقتات جسده كما اقتاتت روحه من رحمة الرحمن ومن حكاية عمر له في آخرته بقية.

× **شاعرة من لبنان**

لسان الحق

حسين الموزاني:

رحل صاحب لسان ناطق بالحق، السيد هاني فحص، عن عالم اليوم الذي يكاد يختنق زيفا وكذبا. لن تكفي عدة سطور في وداع رجل ثوري لطالما كان شغله الشاغل أن ينصر المظلومين، دونما أن يُفكّر في مصالح مذهبية أو سياسية. لدرجة أنّ أنصار الظلّام، رعاة الطائفية في المنطقة، من المذهب الشيعي نفسه الذي ينتمي إليه السيد هاني فحص يحسبونه على الوهابية، وكان كل همهم أن يلفقوا الأكاذيب في حقّه. كيف لا، وهو من القلائل الذين استطاعوا بنفاذ بصيرتهم أن يفصلوا بين الثورة الإيرانية وبين النظام الإيراني المستبد، فدعم الثورة ضدّ الشاه ثم دعم الثورة الشعبية الخضراء في عام ٢٠٠٩. ويكفي ما تحمّله من مضايقات بسبب موقفه الداعم للثورة السورية، ورفعه الصوت عاليا، عندما طأطأ كثيرون رؤوسهم، في وجه حزب الله الذي دأب على زجّ الشيعة في الطرف الظالم من المعركة بين الأسد والشعب السوري. برحيل السيد هاني فحص، خسر التعايش في المنطقة واحدا من أبرز أركانه. أتأمل مُبشّري الشرخ في إيران وسوريا ولبنان وهم ينامون قريري الأعين اليوم، وأتمنى بكامل الحرقة ألا يستيقظوا أبدا.

× **كاتب من العراق**

رجل في أمة

باسم فرات:

مات هاني فحص، يا لها من جملة قاسية، الرجل الذي كان يردّد أن "العراق وطني ولبنان بلدي، حافظوا على وحدته وتراثه وتاريخه ومنجزه فهو ليس لكم فقط، بل لنا جميعا"، كما ذكر مَن التقاه من العراقيين.
في خضم التطرف الطائفي كان هاني فحص رمزا حقيقيّا للوسطية والاعتدال، مؤمنا بالتنوع وحق الآخر بالاختلاف، لم يقف مع أنظمة حتى رحيله بل كان مع الشعوب في حقها بالكرامة والتداول السلمي للسلطة والحياة الكريمة.
كعراقي كنتُ أرى في الراحل شخصية يمكن أن ينطبق عليه القول المأثور "رجلٌ في أمة" فعمامته السوداء كانت مع لبنان وليس مع فئة ضدّ بقية الفئات، وكان مع العراق الأمة والشعب والتاريخ والحضارة والتنوع، ضدّ جلاديه وطغاته وانتهازييه.
حينما كنت أقرأ له أو عنه، يحزنني أن هذه العمامة لا تكون غالبية في المنطقة، العمامة التي وصفها الباحث والعلامة أسد حيدر حين رفض أن يرتديها بـ"تاج رسول الله" هذا التاج الذي أساء له غالبية معتمريه، ليبقى هاني فحص مع ثلة يتيمة تعي خطورته فكانوا أهلا له، فهذا التاج- العمامة جحيمها يصيب الجميع حين تتحوّل بيد طاغية أو دكتاتور أو إلى سلطة تنطق بالحق بالإلهي من وجهة نظر معتمريها. هاني فحص أيّها الرجل- الأمة ما أحوج هذه الأمة إليك ،وهي ضحية طغاة ومعممين غمسوا تاج رسول الله بالدم والجريمة.

× **شاعر من العراق**

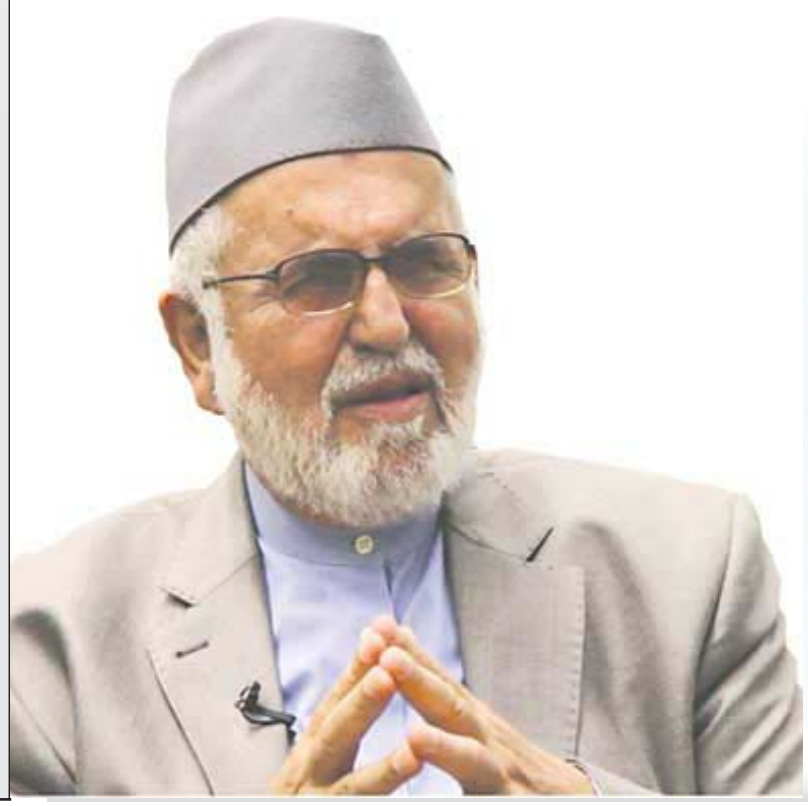

فريد بين الجميع

مريم حيدري:

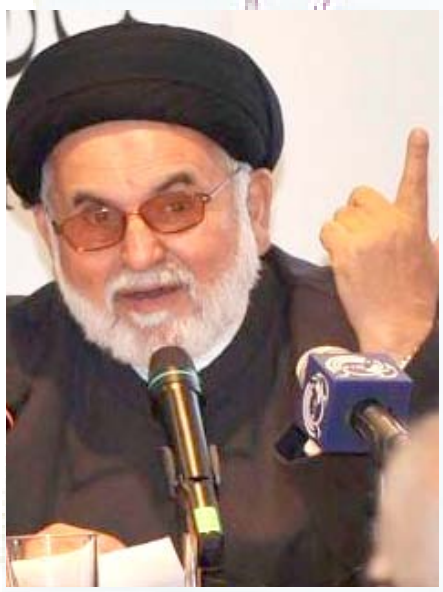

قلما أجد بين الشخصيات الدينية من يعجبني، فما عدا الدكتور علي شريعتي والذي يعتبر مصلحا دينيا، والذي تابعت كتاباته وأفكاره في سنيّ مراهقتي، وقلائل آخرين، وجدت في فكرهم الضوءَ، وبريق الحرية، والانفتاح، لم أنجذب لعلماء دين آخرين. وكان السيد هاني فحص فريدا بين الجميع. وأظن أن عددهم قليل جدا أولئك المتدينون الذين لا تقبل أرواحهم القيود، الذين يفقهون أن الجنة، وجهنم، توجدان هنا، في هذا العالم، فيتجنبون الجحيم الذي يرونه في هذا العالم، وفي أي مكان منه، ويشعرون به في قرارة أنفسهم بحسّهم الروحي العالي، ويسعون إلى تبديده، ويجهدون في بناء الجنة، لأنفسهم، وللآخرين. الجنة التي عرفوا دلالاتها الحقيقية، وأكبرها حرية الإنسان التي لم يعرف البشر قيمة أكبر منها. أدرك السيد هاني فحص السرّ هذا، وبات يبوح به، قولا، وعملا.

يحتاج المتدينُ لنور كبير في روحه ليدرك أنه حتى المظاهر الكبرى لمعتقداته، قد تكون طريقا صوب الجحيم، وكان لهاني فحص هذا النور الكبير، إذ يذكر في مقابلة له إنه حين وصل إلى النجف، وإلى الحوزة العلمية هناك، "أن هنا يمكن أيضا أن يكون طريقا نحو جهنم". وبإمكاني أن أدرك كم من الشعور بالسعادة والانطلاق يمكن أن يعتري الشخص الحرّ، حين يبوح بما يؤمن به، ويُطرَد. ثم يرى أنه لا يحبه إلا الأحرار، دون أيّ نفاق، وأيّة شائبة. ولذلك كان يروقني دوما أن أرى مشاعري مطلقة، لأني أحب هذا الرجل الغريب، وروحه الحرّة، -ذلك أن الغربة، والحرية صفتان لكلّ مؤمن حقيقي-، وأشعر بالكبرياء لأن "روحي، عرفت روحه، فأرواح المؤمنين تألف بعضها"، كما قال صديقنا القديم قبل قرون "أويس القرني".

× **شاعرة من إيران**

رحيل الأنا الحر

أحمد برقاوي

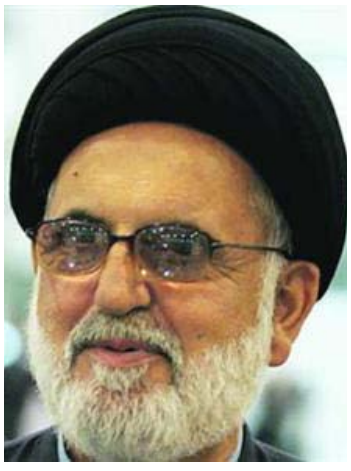

كتبنا حتى الآن عن عمائم ست، بروح الاحتفال بفكرها وسلوكها بعقلها وتحررها. كتبت عن الكواكبي وحلمه الإنساني، كتبت عن الزهراوي شهيد الحرية، وعن الأفغاني مصلحا دينيا وعن محمد عبده ودعوته لقلب السلطة الدينية وعن علي عبدالرازق ودعوته إلى الحكم المدني وعن القسام الفدائي الذي ضحى من أجل فلسطين. وها أنا أكتب اليوم عن عمامة سابعة كانت عقلا نضرا وروحا سمحة وصوتا قويا في وجه الاستبداد وفي وجه كل من ناصره. أكتب عن هاني فحص وقد غادر الحياة تاركا خلفه قولا جميلا وموقفا أخلاقيا نبيلا.

هاني فحص هو القائل "المواطنة هي أن تتحول الأرض التي نقيم عليها إلى وطن الإنسان الذي يعيش فيها ويشارك في صوغ حياتها إلى مواطن يوثق هذا الواقع في دستور، تلك هي المواطنة أي مشاركة المواطن الأصيل في صنع القرارات مما يتيح له تكوين نظرة متوازنة إلى ذاته وبلده وشركائه في صفة المواطنة على أساس المساواة في الحقوق والواجبات".

هذا القول الفصل في المواطنة يظهر انتماء هاني إلى قيم الحرية والمساواة والحق، ولأنه على هذا النحو من الوضوح دافع عن الاختلاف ووقف ضدّ الفهم الأرسطي للهوية ناظرا إليها على أنها صيرورة، أليس هو القائل "البعر الواحد قاتل في الفرد والجماعة".

يعرّف هاني نفسه بالقول: "أنا هاني فحص من قرية جبشيت في جنوب لبنان. لبناني مسلم عربي شيعي إنساني. الآخر ليس عابرا في وعيي وتكويني المختلف هو ساكن ومقيم في عقلي ومقيم في قلبي هو سؤال يلازمني يوميا، أن أتعرف إلى ذاتي وأن أفكك الصورة النمطية عن لذاتي عن ذاتي، وأؤهلها لأن تصبح شرطا للآخر فهذه هي الهوية المركبة وهذه هي مصدر الحيوية".

هذه النظرة الفلسفية إلى المواطنة والاختلاف عبرت عن نفسها سلوكا عمليا، وموقفا مرافعا عن الربيع العربي وموقفا مؤيدا لثورة الشعب السوري وموقفا رافضا لطائفية حزب الله وسلاحه القاتل في سوريا. موقفا مع فلسطين وكفاح شعب فلسطين وموقفا مع الحوار وممارسة الحوار.

رحل هاني تاركا خلفه معنى أن تكون إنسانا وضميرا حيا وموقفا فلسفيا، نظريا وعمليا، مدافعا عن الحرية والتحرر والاختلاف ضد سكان الكهوف القتلة. رحل هاني وله في قلوب أهل الشام مكانة لا تزول.

× **كاتب وشاعر من فلسطين**

صوت الضمير اللبنانيّ

هيثم حسين:

لم ينطلق من مركزيّة طائفيّة أو دينيّة أو قوميّة ليناصر القضايا الإنسانيّة العادلة، لم يقف ضدّ رغبة الشعوب في تغيير مصيرها، والخروج من مستنقع الطغيان والاستبداد، قرن القول بالفعل في الوقوف في وجه الظلم والظلاميين، لم ينْسَق وراء العصبيّات الضيّقة، ظلّ الإنسان الحرّ، والباحث المتنوّر، ومارس أعظم أنواع الجهاد؛ المتمثّل في إدانة سلطان جائر، وهو يعلم مدى خبث النظام وأزلامه.

السيّد هاني فحص يظلّ علامة فارقة في الحوار المنشود بين الطوائف والأديان، وهو بحكم موقعه العلميّ والبحثيّ والدينيّ، يعتبر أحد أركان التلاقي وسط حقول الألغام الاجتماعيّة المتفشّية، والمتّسعة باطّراد بفعل تذكية النيران بناء على نزعات عصبويّة ومصالح سياسيّة آنيّة تتجاهل الحقائق التاريخيّة والمبادئ الإنسانيّة.

ساهم السيّد فحص بقسطه الحياتيّ والبحثيّ، ممارسة وتنظيرا، بتغيير النظرة الضيّقة وتبديد الاستعداء المتراكم بين "الإخوة الأعداء"، وبفضله لم يعد المشهد الإعلاميّ بوجود علّامة شيعيّ وسط معارضين سوريين في مؤتمرات للمعارضة هنا أو هناك غريبا أو مستغربا.

كما أنّ ظهوره الإعلاميّ أكثر من مرّة للدفاع عن الثورة السوريّة وحقّ السوريّين في اختيار مستقبلهم بعيدا عن سلطة الإجرام والتدمير، أثبت أنّه لا يخشى في الحقّ لومة لائم طائفيّ أو عنصريّ أو متحزّب.

أقرّ السيّد فحص أكثر من مرّة أنّ دورة الاحتقان التي يمرّ بها لبنان تعتبر من أشدّ الدورات خطورة وعنفا، ولا سيّما أنّ زلزال الثورة السوريّة ألقى بظلاله على الأوضاع في لبنان، ناهيك عن الانقسام اللبنانيّ التاريخيّ، والشروخ التي خلّفتها الحروب الأهليّة المتعاقبة، ما فرض نوعا من التعاطي بين أبنائه، حيث التقوقع والاحتراس، إلى جانب تلغيم الكلام، وحتّى التحيّة والسلام.

أشار السيّد فحص إلى العلل والأدواء الطائفيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، تحدّث عن اختلاف الأمزجة والحساسيّات المتباينة، وخطورة تنظيم الإرهاب باسم المقاومة والممانعة. بحيث أنّ تحريف المقاومة عن مسارها، وتجييرها في خدمة نظام يمارس إبادة بحقّ الشعب والبلد، يساهم في زيادة العنف وتأجيج نيران الثأر.

لم يرتكن السيّد فحص لمقولات وسمت/ وصمت سلوكيّات وممارسات عدد من اللبنانيّين، كتعبيرات من قبيل: "النأي بالنفس"، "مصادرة الطائفة"، "احتكار التمثيل"، بل واظب على التعبير عن رأيه الحرّ. أدان الانتهازيّة السياسيّة، وكتب وقال وكرّر بجرأة موقفه المعلن، فكان صوت الفئة التي يراد تهميشها وإسكاتها وفرض الوصاية عليها. وظلّ صوت الضمير اللبنانيّ الذي يرى الآخر أخا لا "جحيما" أو عدوّا.

لاشكّ أنّ الثورة السوريّة فقدت صوتا معتبرا برحيل العلّامة هاني فحص، وهو الذي ما فتئ يدعم نضال السوريين في التخلّص من الطغيان، ويبقى الأمل في أن تنتشر أفكار السيّد الإنسانيّة بين اللبنانيين، من مختلف الطوائف، بعيدا عن الانتهازيّات والعصبويّات، بغضّ النظر عن المصالح السياسيّة والافتئات الطائفيّ.

× **كاتب من سوريا**

اهمية تسائلات التنوير لمدارس الاسلام السياسي

تجربة الراحل السيد هاني فحص انموذجا

الشيخ غيث التميمي الكاظمي×

مع عبد الجبار الرفاعي وحسن الامين

واجه الشيعة تساؤلات التنوير الديني بشكل اكثر وضوحا بعد قيام الثورة الاسلامية في ايران لان مفردات الدولة مثل المدنية ،النظام الاجتماعي ،القانون ،التعليم ،حقوق الانسان ،الحريات الخاصة والعامة ،الفنون ..الخ اصبحت عندهم واقعا يعيشونه بعيدا عن جدل علم الكلام والاستلال الفقهي .

مع الاخذ بنظر الاعتبار ان رسائل اخوان الصفا وبعض النصوص الواردة في التراث الشيعي التي تدل على ان اتباع مدرسة الامامة خاضوا في مسائل تعتر بمثابة التاسيسات الاولية للتنوير الديني الذي يعتمد (التجربة البشرية والتجربة النبوية ولا يفرط باي من هذين الركيزتين لصالح الاخرى كما يقول سروش .

فالتراث الشيعي الفقهي والفكري شهد انتصارا واضحا للتجربة البشرية اذا ما تمت مقارنته بمدارس الفقه الاسلامي الاخرى فالمشروطة والمستبدة للنائيني ورفض المحقق الاصفهاني حصر ادلة الاستنباط في (الكتاب والسنة والاجماع والعقل) واعتبار تحصيل الحجة باي طريق كانت دليلا شرعيا يمكن الاعتماد عليها لتكون اسس لاي باحث ومنظر شيعي .

وصولا لجيل من رجال الدين غير التقليديين الشيعة مثل الامام كاشف الغطاء والسيد محسن الامين والسيد محمد حسن الصدر والشيخ المظفر وعبد المهدي مطر والشبيبي والامام موسى الصدر والشيخ محمد جواد مغنية والعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي والمطهري والسيد مصطفى جمال الدين والوائلي وفضل الله والشيخ محمد مهدي شمس الدين والسيد هاني فحص الذي كان العلامة الابرز في تبني خطوات التنوير علما ان الدكتور المفكر عبد الكريم سروش يعتبر احد نتائج النقاش بين الدين والدولة الدائرة في اروقة الحوزات الشيعية ويبرز حاليا العلامة المحقق السيد كما الحيدري كاحد اهم العناوين الحوزية التي تتبنى مشروع مراجعة شاملة وجريئة للتراث الديني الاسلامي .

وفي ظل تمدد نفوذ تيارات الاسلام السياسي الشيعي المستندة لولاية الفقيه كمرجعية شرعية له في العراق ولبنان واليمن والبحرين والكويت والسعودية وسوريا وفلسطين على حساب المرجعية التقليدية للشيعة في النجف وتصاعد حدت الخطاب الطائفي والتيارات الاصولية السنية ابتداءا من طالبان الى القاعدة وصولا لدولة الخلافة الاسلامية في العراق والشام داعش ؛في ظل هذا المشهد وما يكتنف من مخاطر تهدد وجود هذه المجتماعات ومستقبلها ..مما يجعل تساؤلات التنوير الديني تفرض نفسها خصوصا في ما يتعلق بالعلمنة والتعددية والتعايش وحقوق الانسان والعلاقات الدولية والنظام العالمي ..الخ تفرض نفسها كاساس لشكل العقد الاجتماعي المفترض للمجتمعات الاسلامية .

ومما يؤسف له ان المؤسسات الدينية المهمة لم تبادر بشكل فعلي لفتح حوار حول هذه المفردات فضلا عن معالجة الثغرات الكامنة في كتب التراث الديني !! بل نجد حملات نشطة يقودها رجال دين ومرجعيات شبه اساسية احيانا لادانة اي مشروع مراجعة شجاعة مهما كانت بسيطة او خجولة وهذا ما لحظناه في التعاطي مع الراحل السيد هاني فحص ولكن حسب اعتقادي ان ابقاء العلاقة بينه وبين المرجعيات الاساسية قائمة كان يمثل التحدي الاكبر للرجل وقد نجح في ان يحافظ على عمامته كمصدر اثراء وقوة لمشروعه .

لذلك اتصور ان تساؤلات التنوير ستظل قائمة وفاعلة واساسية في مجتمعاتنا وستزداد الحاجة لها بازدياد نفوذ الايديولجيات الدينية الاسلامية في المجتمعات واظن ان وجود شخصيات مثل الراحل هاني فحص ضروري لانه القناة الامنة لحوار اكثر عقلانية وهدوء كونه نشأ في المدارس الدينية التقليدية وتربى على مبادءها ونهل من معين روافدها فهو رسول ومصلح داخلي يجب على كل اطراف هذا النوع من الحوار الحفاظ عليه وكم هو عميق نعي المفكر العراقي الدكتور عبد الجبار الرفاعي للسيد فحص حين نشر قائلا : (رحم الله العلامة السيد هاني فحص الصديق الصدوق، رسول المسلمين للسلام ورسول السلام للمسلمين، رسول الاسلام للمسيحية، ورسول المسيحية للاسلام، رسول الشيعة للسنة، ورسول السنة للشيعة.. رسول لبنان في العراق، ورسول العراق في لبنان، رسول لبنان في العالم العربي، ورسول العالم العربي في لبنان..كان هاني فحص لي هو لبنان، ولبنان هي هاني فحص.)

× رئيس المركز العراقي لادارة التنوع
٢٠ /ايلول /٢٠١٤

غادرنا السيّد هاني فحص مخلفاً فراغاً سيصعب ملؤه، لكن انبعاث ذاكرته من ارثه سيبقى شهادة عميقة على الكثير من المحطات التي يرويها بحياد مؤرخ عاش زمنه. في الآتي ننشر أجزاء من حوار طويل أجرته الزميلة ثناء عطوي مع السيد الراحل قبل أشهر ضمن كتابها "حوارات في المسارات المتعاكسة". ويضيء الحوار على السيرة والنشأة والمواقف من قضايا شائكة بين الامس واليوم.

حوار مع هاني فحص... عن الشيعة وايران وجيفارا وفيروز

كيف أصبحت رجل دين شيخاً ومرجعاً؟

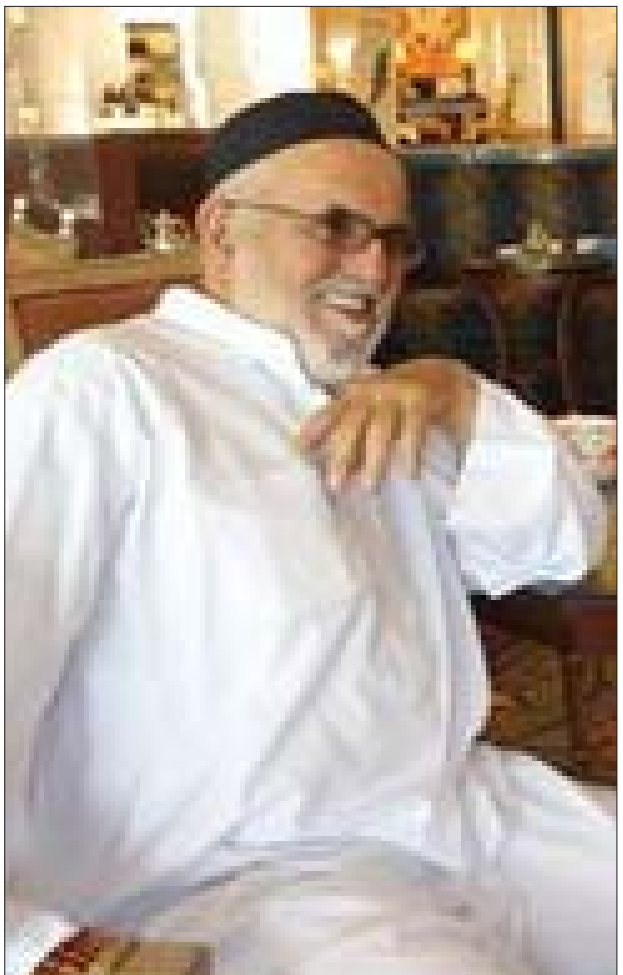

ما "مَشيخني" وجعلني أذهب إلى الحوزة الدينية أمران هما: اللغة العربية، وعاشوراء التي تتّصل باللغة. منذ طفولتي وأنا أتمتّع بحساسية لغوية، بإيقاع المُفردة والصورة، تولّد عندي عالم بديل، وأعيشه كأنّه حقيقي، مجاز اللغة عندي أجمل من الحقيقة. كنت أقرأ وأكتب الشعر ومواضيع الإنشاء، و كانت اللغة وكأنها شأن المشايخ وحدهم، فأطلقوا عليّ اسم الشيخ.

بعد أن اجتزت المرحلة الابتدائية سنة ١٩٥٨ أقنعتُ أمي بأنه ليس من الضروري أن أتعلّم، وأنه ينبغي أن أذهب للعمل في بيروت. كان والدي قد جاء في هذه الفترة إلى بيروت للعمل أيضاً فوجدتها فرصة لي، لكني لم أعرف كيف وماذا سأعمل. اشتغلتُ في مصبغة لتنظيف الملابس، واشتغلتُ في فرن، وفي عدّة أماكن فوجدت الأمر صعباً، عدت ومكثت في البيت. كنت أمضي وقتي مع جارتنا العجوز أم علي حرب، أراقبها وهي تزرع الأرض أسلّيها وأقرأ لها كلّ ما حفظت، ومن بينها قصّة عاشوراء التي حفظتها جيداً، ومثّلتها في مسرحية حضرها أهل القرية كلّهم. كنا نسعى للاحتفاء بعاشوراء في القرية حتى لا يذهب الناس إلى مدينة النبطية، ويشاهدوا احتفال الدم الذي يجري كلّ عام في هذه الذكرى. كان السيد محسن الأمين هو المؤسّس لهذا الاجتهاد الذي حرّم جرح الرؤوس منذ العقود الأولى من القرن العشرين.

ألم تكن لديك أحلام أخرى غير الجنّة؟

لم يكن هناك فلّاح إلا وحلمه الجنّة. كنا نعرف النبطية، لأننا نذهب إليها سيراً على الأقدام إلى سوق يوم الاثنين، أو إلى المدرسة أو نمرّ منها إلى بيروت عند الضرورة، أما القرى المحاذية فلا نعرفها. كان عالمنا محدوداً جداً ولولا الراديو لما عرفنا ما يجري من حولنا. حتى اليوم الجنة لا تزال حلماً، لكن تشكّلات وعينا لها وتصوّرنا عنها تغيّر.

ماذا كنت تعرف عن السياسة ؟

كنت أهتم في طفولتي بالعدوان الثلاثي وعبد الناصر ومصر وقضية السويس، إضافة إلى فلسطين التي كان نازحوها أمام أعيننا، مفردات كانت تشغل رأسي، ثم استفزّتنا الوحدة العربية ما بين مصر وسوريا. رُحنا نجمعُ المال بالقرش حتى نذهب ونرى عبد الناصر، ذهبنا إلى قصر الضيافة في سوريا ورأيناه في عيد الوحدة، وردّدنا أمامه "يا عروبة مين حماك غير البعث الاشتراكي".. كان الراديو يومياً في حياتنا، إذاعة القاهرة كانت عبارة عن سينما ومسرح ومكان لمناقشة أطروحات الدكتوراه، قرأت يوسف إدريس ونجيب محفوظ عبر الراديو، وسمعت جلسات نقاش الكتب والمسرحيات، ولا يزال الراديو يشغلني حتى اليوم.

كيف استطعت أن تُجيّر حماستك نحو الديني في حوزة النجف؟

وصلتُ فلاحاً فالتاً من السلطة لا سيطرة لأحد عليّ، كانت الفوارق الطبقية كثيرة وهي قاسية، فعقّدت التصور وولّدت عندي قلقاً معرفياً كان وراء سعيي للمعرفة، وحوّلني إلى مُشاغب فكري، وطرح عليّ أسئلة لا تنتهي. صيّرتني هذه الفوارق بسيطاً وعميقاً، إذ حاضرتُ في كلية الفقه وأنا عندي ١٧ سنة. وجدتُ في النجف أبعاداً أخرى، فهي مكان مُشبع بالحرية. في النجف نختار أساتذتنا، نختار زملاءنا، نختار كتابنا وساعات الدرس، نختارُ أن لا ندرس. كانت هناك حرية إلى حدّ الفوضى المنظّمة. هو التأسيس الحوزوي هكذا، من المسجد إلى النظامية في بغداد إلى الزاوية في ليبيا، وهذا جعلني أتابع وأقرأ العالم كله وأنا في الحوزة. قرأتُ دوستويفسكي، وتولستوي وكافكا وإدغار آلان بو والوجوديين والعدم وسارتر وسوهو ونابوكوف وبابلو نيرودا وأدونيس وغرامشي وغارودي..

هل ممنوع على المرأة أن تدرس في الحوزة؟

لا أعرف، أو أعرف أنه لا مانع، واليوم يحصل ذلك، لكن ليس لغرض علمي بل محض سياسي. لكن لم يكن يوجد ولا امرأة معنا. ألف عام من تاريخ الحوزة لم تكن هناك امرأة واحدة، علماً أن الحوزة أسّسها الطوسي، وهو عندما جاء من بغداد بعد أن طرده السلاجقة وهدّموا مكتبته وبيته، جاءت معه فتاة عالمة (كريمته)، ولم يتكرّر ذلك. المدينة هي عقل المرأة أما القرية فهي قلبها، وفيها يتكوّن عقلها على قياس قلبها وعضلتها.

كنت متأثّراً بشخصية غيفارا؟

أعجبني فيه روح التضحية وما في داخله من حلم بالعدالة. بكيت عليه عندما مات وعلّقت صورته في المنزل، من يُحب الإمام علي سيرى نضال غيفارا، ومن يُحب الحسين سيحب بابلو نيرودا. هذه الروح الكُلّية التي تحكم التاريخ، والفضاء الرّحب للتعدد والاختلاف. كنت أرى ديني هكذا، إنسانياً مشتاقاً للتغيير والعدالة، يتسامح مع الكفر بشرط العدل. الكلاسيك حماني لأنه كان على علم وتقوى ومُطمئناً إلى نيّتي وليس الحداثة النجفية.

كيف قرأت الحرب الأهلية في لبنان؟

لم أكن مُقتنعاً بالحرب، واعترفتُ بمسؤوليتي مُبكراً سنة ٩٣ في مؤتمر حوار في تعنايل. قلت إن الدم على طرف جُبّتي نتيجة موقف خطأ أو السكوت عن أمر معين. حركة فتح وحزب الكتائب والحركة الوطنية جميعهم كانوا شركاء حرب. كنت ضدّ الحرب، ولم يذهب شاب من هذه الحرب الأهلية وأخبرني، ولم يعد شاب من هذه الحرب وباركته. لم أرَ أمّاً من أمّهاتنا راضية بالحرب. أسّسنا مع بطرس لبكي وروجيه عساف وروجيه نبعة وإبراهيم الشويري وجورج ناصيف وغيرهم "لجان إطفاء" في المناطق لتخفيف الاحتقان، وكانت تجربة مختلفة ومهمّة.

رفضت الحرب الأهلية وكنت تناضل في صفوف فتح؟

دخلت سنة ١٩٧٤ إلى حركة" فتح"، كنت أُعلّم في مؤسّسات الإمام الصدر في المعهد الشرعي، ونُدرّب الشباب على القتال وفكّ السلاح وتركيبه. كانت منظمة فتح فضاء واسعاً، ولا مرّة تلقينا أمراً ولا مرّة جاءنا تعميم تنظيمي، ولا التزمنا برأي أو موقف. كانت حركة شعب، وكان لنا إطارنا التنظيمي، نحن الذين تربّينا خارج فتح عقائدياً. كنا نُصدر مجلتنا ونوزّعها، وعندما لا يُعجبنا هذا القيادي نذهب إلى غيره، وإذا هدّدنا أبو موسى نذهب إلى أبو عمار، وهكذا.. خُضنا أول عملية سنة ١٩٧٣ قبل أن ننخرط في صفوف" فتح"، كنا نذهب عند" فتح" ليلاً بعد أن نفطر ونُصلي، نستقلّ سيارة أُجرة ونتكدّس على بعضنا البعض سبعة أو ثمانية أشخاص. كنا ننزلُ إلى منطقة برج الشمالي للتدريب، ونذهب إلى العرقوب، لكني لم أكن عنفياً ولم أقتل أحداً.

كيف تعاملتم مع الدخول السوري إلى لبنان؟

كنا ضدّه لكن أيضاً ضدّ مقاتلته، كنا نجول على مواقع في الجنوب لإقناع الشباب بعدم إطلاق أي رصاصة على السوريين. ذهبت إلى أبو جهاد غاضباً وشكوت له أن الناس نسوا قضية فلسطين، فضحك وقال سترى قريباً، إذ كان يُهيّء لعملية الشهيدة دلال المغربي.

عقدت صلات وثيقة مع الإيرانيين المعارضين قبيل الثورة الإسلامية؟

صحيح بدأت علاقتي مع الإيرانيين في الخارج منذ سنة ١٩٧٣، كان محمد صالح الحسيني صديقي، وهو إيرانيّ الأصل لكنه نجفي، طردته حكومة البعث إلى لبنان وكان مسؤولاً عن تنظيم الشباب المُسلم ومناضلاً حقيقياً ضدّ حزب الدعوة، عاش واستشهد في لبنان. جاءني وأنا ألقي محاضرة في منطقة النبطية حول مشروع "رؤيا لفك حصار الحزن في عاشوراء" مصطحباً معه جلال فارس، وهو من أهم قيادات الثورة. بعد انتهاء المحاضرة طلب جلال فارسي مني الحصول على النص ليُترجمه إلى الفارسية ويُرسله إلى الإمام الخميني، بعدها أصدرت أنا وفارسي كتاباً عن الخميني وإسرائيل، وكتاباً عنوانه "دروس في الجهاد" جمعنا فيه خطب الإمام الثورية.

زيارتك الأولى إلى إيران لتعزية الخميني أسّست لعلاقة متينة مع نظام طهران؟

ذهبت إلى الخميني سنة ١٩٧٧ حاملاً رسالة تعزية من أبو عمار بابنه الأكبر الذي قُتل في ظروف غامضة، وقُتل بعده علي شريعتي في ظروف غامضة أيضاً، سلّمته الرسالة وأجريت معه حواراً لساعتين. ختم حديثه معي عن فلسطين ووحدة العرب، وطلب مني أن يُركّز العرب على هذه القضية. قبلها كنت في النجف وجاء الخميني سنة ١٩٦٥ مُطارَداً من الشاه. ذهبتُ مع رفاقي وزملائي، واستقبلته في بغداد بفرح. كان سلوكه مُحترماً وبسيطاً ولا يريدنا حاشية له، ولم يكن طارحاً دولة إسلامية، هو جاء إلى تركيا منفياً كمناضل إصلاحي وليس مرجعاً، ولا حامل مشروع دولة بديلة. أقنعه الإيرانيون الذين كانوا يزورونه في تركيا أن عليه أن يكون مرجعاً، فقرّر ذلك وصدّر رسالته العملية هناك تحرير الوسيلة. لم يتحمّل الشاه ذلك لخلل في الاتفاق مع الأتراك على موقعه، فطلبوا من الأتراك طرده وجاء إلى النجف. وإذ كان العراقيون على خلاف مع الشاه، فقد استقبلوه واستخدموه لكنه كان واعياً لهذه المسألة. نسّق معهم ولم ينخرط، لذلك

عندما عقدوا اتفاقية مع الشاه سنة ١٩٧٥ تراجعوا عن دعمه، لكنهم لم يتخلّصوا منه لخوفهم من الشاه أيضاً، أي ليبقى رصيداً احتياطياً.

رأى الخميني في بغداد حركة "حزب الدعوة"، وطروحاتهم حول الدولة الإسلامية في اللحظة التي كانوا متأثّرين فيها بالأخوان المسلمين، كانوا تلاميذَ لسيد قطب، وكان السيد محمد باقر الصدر من المؤسّسين، ثم تنبّه وذهب إلى المرجعية. رأى الخميني ذلك، تأثّر بهم، وقرّر أن يتمايز عنهم. أعدّ أطروحة شيعية مستنداً إلى أدلّة فقهية عادة كانت موجودة، لكن لم يكن لها هذه القوة العلمية، ولم تكن تتمتّع بقوة الإسناد في مداركها، أعني ولاية الفقيه. جاؤوه في باريس بعرض للانتقال إلى ليبيا، خوفاً من رفض الفرنسيين تمديد إقامته، وكي لا يصبح تحت رحمة القذافي لأنه سيُتاجر به، اقترحنا عليه بالتفاهم مع أبي عمار الانتقال إلى البقاع في لبنان في أيلول سنة ١٩٨٢ وإقامة حوزة له. سأل الخميني عن موضوع الأمن فطمأنوه أن الأمن سيكون بالتنسيق ما بين السوريين والفلسطينيين. وافق الخميني وكان الحديث بحضور ولده أحمد بهجتي والسيد محمد حسين بهشتي وبني صدر، لكنه طلب التريّث قائلاً عليّ أن أستشير زوجتي. بعدها أبلغني نواف سلام وطوني عبد النور أن دومينيك شوفالييه الأستاذ الكبير ومستشار الخارجية والداخلية الفرنسية، يريد رؤيتي، وعندما التقينا أبلغني أن الفرنسيين سيُمدّدون للخميني إقامته البارسية لأنهم يريدون المحافظة على مصالحهم.

عشت قريباً من كبار رجالات السياسة في طهران؟

عشتُ في طهران ثلاث سنوات، وشغلتُ منصب عضو اللجنة العلمية للمؤتمرات التي تضمّ شخصيات كبيرة. كنت مستشاراً غير معيّن للإذاعة والتلفزيون الإيراني سنة ١٩٨٢ ومسؤولاً عن القسم العربي في هيئة الإعلام الحوزوي، كما أسّست وأشرفت على مجلة أبحاث اسمها "الفجر". درّستُ في قُم فنّ البحث والكتابة وهو فرع استحدثته أنا، ودرّستُ أيضاً تاريخ الشعوب والاستعمار من القرن الثامن عشر. عُيّنت مستشاراً ثقافياً لشؤون العلاقة والاتصال بالعلماء المسلمين حول العالم، وكان رئيس الهيئة السيد علي الخامنئي، وأمينها العام الشيخ علي المشكيني، وأعضاؤها مجموعة من العلماء من بينهم السيد خاتمي عندما كان وزيراً للإرشاد.

من كان السيد خامنئي؟

كان غير خامنئي اليوم. كان مُثقفاً مطّلعاً على نتاجات العالم الثقافية، وكان البُعد الثقافي عنده أهمّ من البعد الفقهي، واجتهاده الفقهي أو أهليته لولاية الفقيه ليست مسلّمة وإنما رواية رواها رفسنجاني البراغماتي الأصلي. هو روى أن السيد الخميني قال إن السيد الخامنئي مؤهّل للقيادة، وبقي من يشكّ في أصل اجتهاده. أعتقد أنه بالمعايير الكلاسيكية الصارمة قد يكون ذلك صحيحاً لكنه لاحقاً اشتغل على نفسه فقهياً وتجاوز هذه الحالة وبقي عاقلاً وفهم أن مرجعيته لا تمشي. وإن كانت فتواه تُلزم الجميع في إيران، فذلك عائد إلى قوة السلطة الحاكمة. حتى حزب الله مرّ في مرحلة لم يكن قادراً فيها على فرض لا الخميني ولا الخامنئي، لكنه الآن ارتاح لأن الحزبية أصبحت أكثر تماسكاً وأكثر قدرة على الإلزام، وأصبح عندنا حزب ستاليني بالمعنى الكامل وشبه وهّابي أو حنبلي شيعي.

عملت إلى جانب الخميني والخامنئي بمن تأثّرت؟

لم أتأثر بأحد. أحبُ الشعب الإيراني وأكرهُ شاه إيران، لأنه ساعد إسرائيل على احتلال فلسطين. أحب العدالة والفقراء وحرية الفكر. منذ أن كنت في النجف توجّهت نحو المعارضة الإيرانية من دون تفريق، كان أصدقائي من مجاهدي خلق والليبراليين وجماعة بازركان وكريم سنجابي والكفاءات الليبرالية الإيرانية ومن بينهم الدكتور كاظم سامي.

ماذا عن الإمام الخميني؟

لفت نظرنا سلوكه العرفاني، وذوقه الرفيع وأناقته وحرصه الشديد على اختيار ملابسه. لا يُتمتم بالدين كغيره، حياته الشخصية كانت بسيطة، لم يتبدّل مصروفه بعد أن أصبح حاكماً أعلى. كان فطوره جبنة وريحاناً، وكل طعامه من البيت وبقي كذلك. كان يستيقظ باكراً يُصلي ويقرأ القرآن، يستخدم المُنبّه، يلفّه بحرام صوف ويضعه تحت أذنه كي لا يُزعج زوجته. في عيد الميلاد وأثناء إقامته في باريس، دعا جيرانه كلّهم إلى حديقة منزله ووزّع عليهم الورد وهنّأهم. أذكر عندما زارته صحفية إيطالية وقرّرت تحديه نازعةً الحجاب، لم يقل كلمة واحدة، نظر إليها نظرة قالت بعدها أحسستُ أنه عرّاني فخرجتُ وأنا أتلفّت ورائي.

ما الفرق بين الخميني والخامنئي؟

الفرق بينه وبين كل رجال الدين، بينه وبين السيد الخوئي وبين السيد محسن الحكيم وآخرين. هو وهجٌ عظيم، فيه سطوة وهو يتيم وغريب، أصله هندي وهو آت من كشمير. توفي والده باكراً فربّته أمّه وعمّته. كان شخصاً لا يُحتمل، وغصباً عن أيّ كان، يشعر من يكون إلى جانبه أنه ضئيل، لأن حضوره يطغي ويلغي.

هل تسمع فيروز اليوم أليست الأغاني من الأعمال الحرام؟

ليس صحيحاً، كلّ ما هو مفيد أو جميل حلال، وحديثاً اشتريتُ ٦٠ أغنية لمحمد عبد الوهاب. الأغاني تُشعرني بروحانية عالية، وأنا أبحث عن الرّوح في الطرب، لا أخالف الشرع لكن رأيي أن بعض الأصوات الطربية أحنّ وأكثر روحانية من أصوات بعض المنشدين وقارئي الأدعية، بطريقة تُبعثر ما فيها من رقّة وروح وجاذبية. هذه أمور خلافية عند الجميع، ما يُحرّمها هي اللحظة والمزاج والثقافة، كما تتحكّم فيها مزاجية فقهية كبيرة.

تصف تعامل إيران مع شيعة لبنان وكأنهم جالية إيرانية؟

نعم لأن الإيراني استيلائي، لا يُحب أن يكون له دور وإنما نفوذ. الدور يعني الشراكة، الدور يشترط الآخر، والنفوذ استتباع واستلحاق، زبائني ريعيّ يشتري الرقبة والقرار، يهمّه الوصول إلى هدفه، هو براغماتي جداً ومسكون بهاجس الإمبراطورية التي يريد استعادتها بمنطق القوة الفارسية أو الشيعية أو الإيرانية مقابل الكثرة العربية. وقد جاءت للإيراني فرصة ذهبية سنة ١٩٨٢ عندما ترك العرب فلسطين ولبنان، فاستغلّ غفلتهم، وذهب إلى قضية العرب الأولى، وإلى قضية السنّة الأولى وأمسك بها، فلسطين هي الذريعة، ونظّم حركة مال وذهب إلى النظام السوري. في الوقت نفسه كان العرب يُدلّلون النظام العلوي وحافظ الأسد، ولم يُقدّموا مشروعاً للعراق، تركوا الجنوب وتركوا فلسطين، وراحوا يُقدّمون مالاً بلا عقل وبلا برنامج.

هل المال الإيراني ذكي فعلاً ؟

جداً، سمعت بأُذني مسؤولاً مالياً إيرانياً يقول إذا أردت أن تُعطي عربياً أو لبنانياً ألف تومان، فلا تعطه إياه دفعة واحدة وإنما أعطه إياه على ثلاث دفعات، كي تربح منه ثلاثة أضعاف.

ما الذي جعلك تعيد النظر بأفكارك السياسية وبموقفك من إيران وحزب الله؟

انتبهتُ إلى وطنية إيرانية عميقة. أنا كنت شخصاً كوزموبوليتياً عابراً للوطن، لا وطنياً، أو لي وطن هو خرافي، بلا حدود، بلا مكان معيّن. انتبهتُ إلى أن هناك وطنية إيرانية، أنا مسلم فهل وطنيتهم هي ضد الإسلام، ضد الشريعة؟ هذه وطنية إيرانية في مكانها، لماذا لا أنتبه إلى وطنيتي ولبنانيتي؟! لماذا لا أنتبه إلى عروبتي؟! ليس بالضرورة أن أكون بعثياً، ولا قومياً عربياً، لكني عربي وهذا جزء من هويتي المُركّبة، فقرّرت العودة إلى لبنان لبنانياً عربياً من دون عداء لإيران، لكني مُصرّ على التمايز، وهكذا بدأت أتغيّر من موقع فكري وجدّدتُ قراءاتي لمعنى العروبة الثقافي، ونشأة الكيان ودوره ومعناه، ومعنى المواطنة كاختيار لا بدّ أن يصبح قانوناً.

أي مرجعية هي أكثر مُعاصرة وانفتاحاً؟

أنا لا أمنحُ شهادة، كل مرجع له ميزة، لكن رأيي من رفض أن يصبح مرجعاً، واختلفت جداً معه، هو الشيخ محمد مهدي شمس الدين. هو بدأ كلاسيكياً متشدّداً وصعباً، وانتهى إلى حداثة وقِبرة. لم يكتب ولم يقل شيئاً دون المستوى، وكان أهمّ من قرأ الثقافة المجتمعية التعدّدية من منظور حديث وتقانة كلاسيكية.

مَن تُقلّد اليوم؟

مرجعي هو السيستاني، وكنت أول من قلّد الإمام الخميني في لبنان.

لماذا غيّرت؟

هذا طبيعي في الوسط الشيعي. ثبُت لي أن السيستاني أعلم من الموجودين،على علوّ شأنهم العلمي، ثم إنني لا أقلّد الميت، لقد انتقلت من الخميني إلى المنتظري ومن بعده إلى السيستاني.

السيد فضل الله نصّب نفسه مرجعاً وحورب هل فكّرت أن تُعلن نفسك مرجعاً؟

لا أبداً، أنا مثقف ورجل إشكالي. أنا أحترم جداً الشيخ محمد مهدي شمس الدين، الذي قد يكون أعلم من السيد فضل الله أو مساوياً له، مع تمايزه عن الجميع بمستواه الفكري والمنهجي والنقدي. أنا طامح كي أكون جزءاً من حركة مرجعية فكرية واجتماعية، تمرّ بالفقه والفتوى، لكنها ليست مضطرّة أو مهتمة بإنتاج الفتوى، لأن لها آلية إنتاج ليست متوفرة لدى المثقف الديني بل هي من أدوات الفقيه.

موقفكم مما يجري في سوريا والبيان الذي أصدرتموه أخيراً أثار ردود فعل مُستغربة لماذا؟

أقسى كلام صدر على أصدقائنا السوريين كان من الليبراليين السُنّة، وليس من المتطرفين السنّة أو جماعة القاعدة أو غيرهم،لأن هؤلاء لا نتوقّع منهم الرضا ولا نريده. قالوا لنا تأخرتم، فقلنا لهم ما ذنبنا إذا لم تقرأوا إلّا ما تكتبونه أنتم؟! هناك بُعد شخصي في أول بيان، وهناك بُعد ثنائي مهمّ وذو دلالة مع السيد محمد الأمين في البيان الثاني. لكن هناك شيعة عرب وقّعوا على الثالث.

أين أنت في السياسة اليوم؟

لا أعرف. أبدو أقرب إلى ١٤ آذار لكني لست منهم إذا كان لدينا هناك أو بقي لدينا ١٤ آذار. هم يتصرّفون وكأنهم عوام، انفعاليون أكثر منهم فاعلين وكسولون، ينتظرون متى يتأزّم حزب الله حتى ينشطوا، كالتلميذ الذي سأله والده عن درجته في الامتحانات فقال (الأخير)، لكن إذا مات رفاقي كلّهم سأكون الأول.

ماذا عن ٨ آذار؟

هناك بُعد أخلاقي وفكري في السياسة، وهناك بُعد تنظيمي. يُعجبني الشقّ التنظيمي عند جماعة ٨ آذار، يُنظّمون خبثهم وتحالفاتهم وانقلاباتهم وتنازلاتهم، المستوى الأخلاقي في عملهم لا يعجبني، ولو أبعدوا الدين عن عملهم لكان أفضل. لكني أعيش هاجس الخوف من انهيار حزب الله.

هل تريد للحزب أن يبقى؟

ليس بهذه البساطة، لا أحد يبقى، وكلما زاد الحزب تماسكاً كان مُهدّداً أكثر. لا أريده أن ينهار علينا، أريده أن يُسرع إلى المشاركة العقلية مع الآخرين، وأن يُصبح عقله بحجم عضلته الكبيرة. ولا تُحفظ قيمة سلاح الحزب ولا سُمعته ولا إنجازه إلّا ضمن إدخاله طوعاً في مشروع الدولة.

فيما يتعلّق بالأزمة السورية هناك خوف عموماً لدى الشيعة؟

في البداية كان خوفاً غير منطقي لكنه صار منطقياً. لطالما كان الشيعة محبوبين في سوريا لأنهم خارج لعبة الانقلابات والتغيّرات السياسية، وقد علّمهم ذلك السيد محسن الأمين. أذكر عندما زارني في طهران بعض وجهاء الشيعة في الشام، وطلبوا مقابلة السيد الخامنئي ليقولوا له اتركنا بحالنا ولا نريد تعزية بالبرامكي، كنا نعيش مندمجين في الشام. للأسف تأثر الشيعة بوهج المقاومة والمال. نحن نعمل اليوم على حماية التعدّد في سوريا، على حقن الدماء ونشكّ في نجاحنا. نُعدّ وثيقة لحماية التعدّد، وليس الأقليات، بالتعاون مع المعارضة في إيران ومع الفاتيكان وقوى الاعتدال في العالم.

هل تعتقد أن سوريا ذاهبة إلى استقلال كامل؟

ذاهبة إلى استقلال كامل لكنه مُكلف جداً وليس موعده قريباً. حتى الإيرانيون يتوقّعون في قرارة أنفسهم أن استقلال سوريا من دون الأسد ونظامه سوف يأتي، لكن الباطنية الإيرانية تعمل على أطروحة أخرى.. الله يسترنا منهم.

عن صحيفة النهار اللبنانية

مع غسان ثويني وسمير قصير في مقر جريدة النهار

في رحيل عمامة السلام

ابراهيم العبادي

في الفاتيكان

ككل صباحاتنا المترعة بالحزن، لم يكن صباح الخميس المنصرم (الثامن عشر من ايلول) مختلفاً عن سابقاته، سوى بجرعة حزن زائدة اضافت الى انشغالاتنا وهمومنا اكواماً من الهموم والاحزان.

كان لرحيل العلامة السيد هاني فحص، وقع الصدمة رغم انه اتاح لنا التهيؤ لمثل هذا الموقف، بدخوله المشفى مغمياً عليه من مرض تليف الرئة الذي لم يمهله طويلاً.

صدمة الرحيل هذه، لم يكن منشؤها الموت السريع ولا اطمئنانا بعالم الفناء، بقدر ما كان الشعور باليتم والوحدة من فقدان الشخوص الكبار الذين نطمئن لهم وبهم، فنحن بحاجة الى ركن شديد يشد من عضدنا في جحيم المواجهة الضارية مع سلفيات الموت وجهاديي الكراهية والذبح، وخطاب الازدراء واحتقار الاخر.

عمامة السيد هاني فحص ومنهجيته الاعتدالية وسمته الحواري، وشخصيته المنفتحة ورسائل الحب والتعارف التي يرسلها في كل الاتجاهات، رسمت له مساراً معاكساً للموجة العاتية التي تضرب سواحلنا بـ((تسونامي)) القتل والتكفير والتراشق المذهبي، وخطابات الشحن وطبول الحروب الدينية والمذهبية.

يندر ان تجد عمامة سوداء او بيضاء متوازنة في هذا الزمان تحسب حساباً لكلماتها وفتاواها وخطاباتها، لا تبذر بذور الصراع ولا تشحن النفوس بغيض الانتقام، ولا تشيد جدراناً من العصبيات والهويات القاتلة.. قليلون اولئك الذين حافظوا على هدوئهم وابتسامتهم في زمن التجهم والعبوس.

مفردات الخطاب الديني السائد تعج اليوم بمنطق الصواب المطلق والتخطئة المطلقة، فما عداي هراء محض !! وما سواي غير الباطل !!.

ادعياء الحقائق المطلقة لا يجدون لدى غيرهم عذراً من معرفة او علم او دليل او ثقافة تشفع لهم عند رب الحقيقة المطلقة، ومنذ ثلاثة عقود ومرجل منطقتنا البائسة يغلي بخطابات الحروب والتكفير بأنواعه، كان تكفيراً بأيديولوجيا القومية وتالياً الوطنية واليوم بأيديولوجيا الدين، ويوم أختطف هذا الدين من ايدي اهل العلم والاجتهاد والتروي، صار منزوعاً من انسانيته، يبني امبراطورية القتل باسم الخلافة، ويستعيد فتاوى (ابن تيمية) الحراني المأزومة في زمن العولمة، ويلغي مئات السنين من الكثرة والتعدد والتنوع في ديار الاسلام، لصالح وحدة مفترضة.

في مقابل خطاب الهدم والتدمير والتهجير، كان السيد هاني فحص يجهد في الترويج لخطاب الدين الانساني، دين الرحمة والايمان، دين التسامح والحوار، دين المحبة والتعارف. اجتهد في ان يكون سفيراً للكل الى الكل، فهو سفير المسلمين الى المسيحيين، وسفير الشيعة

مع البابا

هاني فحص أيقونة الاعتدال والحوار

مهدي باجلان

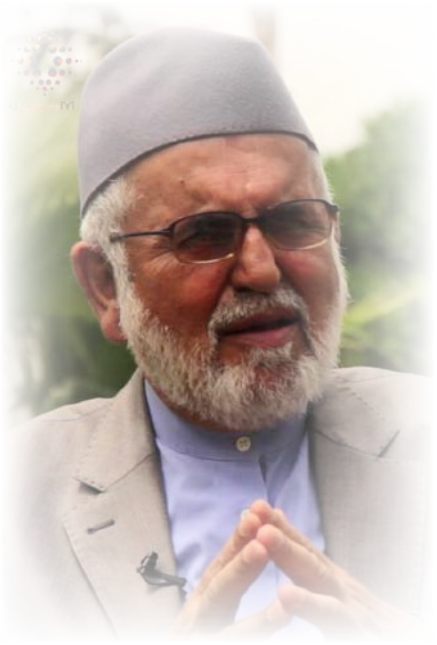

الى السنة، وسفير العرب الى الايرانيين، وسفيرٍ الفلسطينيين الى اخوانهم المسلمين عرباً وغير عرب، كان يقول: تعلمت من الايرانيين حب الوطن، ومن النجف خطاب العلم والجد والاجتهاد، ومن تنوع اللبنانيين حب الانسانية.

للحق لم اصحب السيدهاني فحص صحبة شخصية، كما الكثير من الزملاء والاصدقاء، كان لقائي به لقاء فكرياً ثقافياً، منذ ان وقع بيدي كتابه الجريء (مشروعات اسئلة قبل ايران كانت خائفة) في بداية الثمانينات، بداية خروجي من العراق.

يوم ذاك ادهشتني لغته قياساً باللغة السائدة التي كانت عادية، جامدة، فقيرة من القدرة على اجتراح منطق لغوي جديد وعلى توليد الاسئلة.

بعد ذلك دهشت حينما علمت انه كان مستشاراً لزعيم منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، وعراب زيارته الشهيرة الى طهران، غداة انتصار الثورة الاسلامية في ايران ولقائه بالامام الراحل السيدا لخميني.

كانت مقاييسنا في ذلك الوقت ان الاسلامي لا يمكنه ان يكون منفتحاً على غيره، حد الالتحاق السياسي او التنظيمي، او المشاركة في النشاط العام. بيئتنا العراقية، بيئة قطيعة تعلم الانسان كيف يبني اسواراً وجدراناً من الصدّ والتباعد مع اتباع الأيدولوجيات الاخرى، الحضور الايديولوجي المكثف لدينا، كان يحجب كل ما هو انساني واخلاقي عند الاخر، ايا كان هذا الاخر محلياً او اقليمياً او على امتداد التنوع البشري، في الثقافة والدين.

عندما يخرج عالم دين مثل هاني فحص، ابن البيئة النجفية وخريج كلية الفقه النجفية العتيدة، متأبطاً افكار التنوير والمصالحة مع الذات، والمصالحة بين الاقوام والمذاهب والافكار والايديولوجيات، فذاك يعني انه توليفة جديدة غير مألوفة، ربما كان ذلك نتاج البيئة اللبنانية المنفتحة، وبيئة العلم المتمردة على عالم الجمود، والتعصب، والتحيز، والانغلاق، سبقه في ذلك عالمان راحلان هما العلامة محمد مهدي شمس الدين والعلامة السيد محمد حسين فضل الله.

ربما زاد السيد هاني فحص على مجايليه وسابقيه، انه لم يتقيد بقيود عمامته السوداء (ونحن نعرف حجم هذه القيود)، لا على مستوى اهتمامته ولا على صعيد علاقاته ومواقفه، فكان اقرب الى التحرر من (شأنية المعممين) وحدود ورسوم رجالات الدين.

في مهرجان المدى المنعقد في اربيل عام ٢٠٠٧ كانت الحوارات والصحبة معه ممتعة للغاية، فهو يدهشك بغير السائد من المواقف والاحكام والافكار، يحفر في ذاكرة العلم والثقافة الاسلامية، من اجل ان يمد جسوراً من التواصل والفهم المشترك، كان مهموماً بتبديد (سوء الفهم) بين المواقف المتباعدة.

على طاولة واحدة جمعنا منظمو المهرجان لنناقش المحور الفكري الاهم في الملتقى وكان بعنوان (الاصلاح الديني والدولة المدنية) اصطففنا على مقاعد ضيقة انا واياه الى جانب قصي السهيل وفالح عبد الجبار وغالب الشابندر وحيدر سعيد ورشيد الخيون، بحضور جمهور ضاقت به المقاعد ، وادلى كل واحد منا بدلوه، كانت الاراء تتسع لكافة الرؤى ولم يكن ذاك المعمم الذي يستفزه مفهوم ومصطلح (الدولة المدنية) فكان داعية المدنية بامتياز، طالما حافظت على انسانيتها وعدالتها ولم تصنف الناس الى طبقات ومحظوظين وحراس لطقوس الدين واعداء لكل ما هو ذي صلة بالدين.

كان السيد هاني فحص داعية حوار واصغاء للحس الانساني النبيل، يريد لانسان هذه المنطقة ،على الاقل، ان يعيش تحت انوار المحبة والايمان والسلام، بلا ايديولوجيا القهر والاحتراب والتصارع، وفي لحظة الافتقار الى دعاة هذا المنهج يغيب السيد هاني فحص تاركاً وراءه عالماً متجهماً يضج بالموت والانتقام، وعالما يقتتل فيه ادعياء الدين، وتسحق فيه كرامة الانسان... فيا لعظم الخسارة ، ويا لضخامة الفقدان.

هو ذلك الوجه الوقور المليئ بالابتسامة دوما هو ذلك القديس والقلم والفكر الذي على الارض يسير لأعرف كيف ان اكتب عن رحيل هكذا أنسان التقيت به في معرض المدى قبل سنتين وكأني اعرفة منذ الف عام لحديثه المليئ بروح المتعه ورح الفكر الممزوج بالادب والفكر هو أشبه بشجرة الارز ومخلة باسقه تسير الذي كان يخلط مابين الاثنين لبناني المولد وعراقيٌ الهوى .يختلف عن رجال الدين التقليدين وهو يرتدي زي رجال الدين عمامتهُ هي فكر وأنسانية وحوار وكان يضع على راسه السداره البغدادية حبا له لبغداد عاصمة العراق الذي اصبح بلده الثاني اقدم الى المدارس الدينة في النجف الاشرف باحثا عن علما وادب وبلاغه واخذ يكتب ويقرا بين دهاليز الكتب والمكتبات . هاني فحص هو كان يجمع مابين كل الاديان والطوائف ليس لغرض سياسي بل كونه كان محبا للتقريب ولغة الحوار .

عظاء الامه مثقفيها

فهو العظيم بفكره وخلقة وسماحته واعتداله ومفخره لكل الانسانوين والباحثين عن ملجا للحوار خالي من العنف والاظطراب كان قلمه يكتب من ذهب ودرر الكلام كان يقرأ كل الروايات العالمية كان مثقفا بارعاً .

ورجل دين قديساً ..

هاني فحص انت رحلت جسدا وبقيت روحا

انت باقي مثل شجرة الارز ونخل العراق الباسق وتبقى ذكراك حياً مادامت هناك كائنات تدوي في الوجود .

عراقيون

من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير

فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي

عدنان حسين

نائب رئيس التحرير: علي حسين

الاخراج الفني: نصير سليم

طبعت بمطابع مؤسسة

المدى

للإعلام والثقافة والفنون

WWW. almadasupplements.com

الإيمان بالعقل وآية الخلق الكوني رؤياه المتجذرة: الصلاة في محراب هاني فحص العاشق الرباني

فخري كريم

إحساسٌ لم أعهده في حياتي، استولى عليّ وأنا أتعثر في مشيتي خلف جنازة هاني فحص، المرفوع على هامات محبيه، من بيته في ضيعة جبشيت الجنوبية، الى مدافن الضيعة. لو حدثت نفسي بهذا الإحساس قبل عقدين من الزمن، حين كان صندوق المعرفة يضيّق على الفكر مساحة تراتيله وتهجداته، بما تحدد للصندوق من أبعاد تخنق الاجتهاد، وتمنع الابحار في عوالم المعرفة الانسانية، لقلت انها مرحلة ارتداد عن الفكر والوعي والهداية بالقيم الانسانية العليا.

كدتُ أفضح نفسي، وأنا أستجيب لحوارٍ مع هاني فحص، المحمول أمامي، وهو يتبسم لي، ويرد على تساؤلاتي: لن أخفف عليك محنة السؤال، تستطيع أن تقول كل شيء، أو لا شيء! لكنني لن أقول لك ما تريد أن تسمع مني، حتى لو استمر بكاؤك الى يوم القيامة!

اعرف أن ذاكرة الانسان تظل طرية، تستجيب لحافز قوي بالاستعادة المعرفية، وفي تشكيل الصورَ، وقد ترسم مقاماتٍ وأشكالاً تركت إشارتها في الخارطة الجينية منذ السنوات الاولى للتكوين. لكن هاني كان امامي، وأنا أسير متعثراً، يبتسم، وربما يسخر بابتسامته، وهو يتحدث معي في جدل الوجود والعدم، وفي المساحة التي لم يستطع الانسان حتى اللحظة أن يهجر تساؤلاته حول لحظة التحول في مساماتها.

وأنا اكتب، اراه يتابع حروفي، ويقول: الآن، أنت ستصحح ما تكتب، وتتوهم انني افعل ذلك، لكنه وهمٌ كالحقيقة، وهذه هي صَلاتي التي لم تستوعب التَماسّ معها كلما حاولت مقاربتك مع مفهومها!

كلما كنت أسأله، بصيغة هي أقرب الى الاستفزاز والتشكيك، كيف تميّز تديُّنك عن الدين التقليدي، لبشر تستوي عندهم الطقوس مع أدوات الخديعة؟

كان يقول بهدوئه المعهود، وثقته بإيمانه، انه "سر السريرة، ومكمن الوديعة" التي يستحيل أن تتكرر بين إنسان وآخر. وهذه السريرة

لها بصمتها الوراثية، لكنها هي الأخرى تتميز من إنسان إلى آخر!

يوم زارني في بغداد، ذهبنا سوياً الى عرس جماعي نظمته مؤسسة المدى، ومع بدء الفعالية، شعرت بالإحراج، وقد بدأ الرقص والغناء. شاورته: هل أحرجتك؟ أجاب بعفوية: بل أحرجت نفسك! فالمؤمن المغصوب على معصية، ليس بعاص، بل له ثواب ونصف، ثواب لأنه تحمل الغصب، ونصف لانه هداك لتعتذر وتخرج معي، مع انني لا ارى في المشهد ما يخدش لولا التقويل المسيء!

ليس لإنسان أن يتجنب عثرات الحياة، أو ينجو من سهامها، لكن بعض الناس، وهاني منهم، يستطيع بتكيفه، أن يزوغ عن مكامن الخطيئة، دون ان يتسبب لغيره بأذى. لم يكن يتطرف في إظهار الزهد أو التعبد أو تجنب المحارم والمعاصي. وكلما تشبّه له أن أحداً يترصده، يقابله بكلمته المأثورة: يا عمي خلني ويا ربي..!

يعرف هاني فحص أمهات القصائد، في كل ميادينها، واجملها في الغزل والحب وألوان أخرى، يرددها متدينون في سرهم، ويستغفرون الله كلما ردها على أسماعهم المنشدون. ويحفظ رواياتٍ ومسرحياتٍ وأساطير وحكاياتٍ من الطفولة وكتباً تتناول العلوم الحديثة، ولم يترك ماركس وانجلز ولينين وغرامشي قبل ان يحاورهم في مؤلفاتهم ونظرياتهم الضد عقائدياً. كان يقول انه يغتني بقراءة كل ما يبدو ضداً، ولا يعرف الجاهل أو الاعمى ايمانياً، أن الاضداد هي التي تحقق التوازن الانساني، وتمنح الحياة التنوع، وحب المعرفة واكتشاف الجديد، وتجاوز الغفلة!

يوم عرفته، رأيت نموذجاً يقربك من الإيمان المطلق دون أن يخدش منظومتك الفكرية. فالصلاة لحظة تجلٍ روحية، والوضوء نظافة، والصيام احساس يقربك الى التائه في الصحراء..

والعمامة والجبة..؟ مضمارٌ يتساوق مع المُضْمَر، فيقيه ويتقي به. ولماذا يستفزك، وهو لا يغويك بارتدائه، الا اذا كنت مشروع منافقٍ أو دجال..!

سألته يوماً، كيف تستطيع التعايُش مع الأسئلة الكبرى؟

أجاب: اقترب من كل سؤالٍ وأنا اصلي، فأتشبع بالسكينة والإحساس بالاقتراب منها..

و..

ارجوك ارحمني: لا تكفرني..!

لم اكن اريد ان اكَفِّره، وكنت أقول له دائماً: ان عقلي ليس حاملاً معرفياً بما يجعلني اتعالى على محدوديته، وهي إشكالية تتداخل مع دوافع الايمان الدفينة في اعمق اعماق الانسان، في "فص العقل" الذي يمتد الخوف في كل تضاريسه. وكم كان يشعر بالرضا وانا أعيد على مسامعه: الايمان والالحاد، يتعكز احدهما على الآخر فيتكاملان، لانهما دعوتان للاستفاضة من وعاء العلم الذي يتسع، خلافاً لكل وعاء يفيض بما فيه.

الإلحاد طريق الإيمان، ووسيلته العلم والمعرفة الموسوعية.

هذه قاعدة أخرى من قواعد العشق التي لم يذكرها شمس التبريزي لجلال الدين الرومي..

أيمكن أن نكون قد تبادلنا الادوار، في لحظة استشراف، فتلبستني تلك الحالة التي كنت أسير فيها وراء جنازة السيد الفقيه، دون أن أدري..؟!

افتتاحية جريدة المدى الاحد ونشرت بالتزامن مع جريدة الحياة اللندنية

هاني فحص وفخري كريم في افتتاح بيت المدى في شارع المتنبي عام ٢٠٠٩